لمزيد من الكتب والأبحاث زوروا موقعنا مكتبة فلسطين للكتب المصورة
https://palstinebooks.blogspot.com

دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

— ٤ —

الرسائل والمقامات

عبد الحميد الكاتب - بديع الزمان - الحريري

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م

منشورات مكتبة مينمنه - بيروت

دراسات قصيرة في الأدب والتاريخ والفلسفة

— ٤ —

الرسائل والمقامات

عبد الحميد الكاتب - بديع الزمان - الحريري

تأليف

عمر فروخ

دكتور في الفلسفة
عضو المجمع العلمي العربي في دمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في نيويورك

الطبعة الثانية

بيروت

١٣٦٩ هـ = ١٩٥٠ م

منشورات مكتبة مينمنه - بيروت

الطبعة الاولى
١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م
الطبعة الثانية
٢ / ٢٠٠٠ /٣ / ٥٠

جميع الحقوق محفوظة

بيروت
١٣٦٩ هـ — ١٩٥٠ م

الكلمة الثانية

في هذه الطبعة الثانية تنقيح يسير وإضافات قليلة ابرزها نماذج من رسائل بديع الزمان ومن مقاماته ثم من مقامات الحريري . ولقد حرصت على ان أضبط الكلمات واشرح الالفاظ وابسط المعاني في الحواشي قدر الامكان . الاّ ان كثيراً من الادب لا يجوز شرحه ، لأن الهزّة الادبية يبعثها في اغلب الاحيان نسق الالفاظ — وخصوصا في ما نحن بسبيله في هذه الدراسة — اكثر مما تنطوي عليه تلك الالفاظ من الآراء والافكار . ذلك لأن الرسائل والمقامات ادبُ صَناعةٍ لغوية في الدرجة الاولى ، ثم هي بعد ذلك مظهرُ براعةٍ لما يحفظه صاحب الرسائل والمقامات ويرويه لا لما يبدعه او يبتكره . من اجل ذلك شرحت ما لا بدَّ من شرحه وتركت تبيان موضع الهزّة الادبية ليراه كل قارىء في مرآة نفسه وبمقدار محفوظة ومدى اختباره .

٢١ جمادي الاولى ١٣٦٩
١٠ آذار ١٩٥٠

ع . ف

الكلمة الاولى

لما فكرنا في اصدار بعض البحوث والدراسات كانت اسعار الورق تساوي ثلث ما هي عليه الآن او اقل من الثلث ، فلم يكن بد من ان نتأثر بالناحية المادية فنترك شيئاً من التزويق والتأنق وشيئاً من التوسع الانشائي ؛ ولقد عُقِلَ بعضُ ذلك عنا . ولكن بعض الاخوان والادباء وجهوا بعض اللوم وبعض الانتقاد سنجلو العذر فيه فيما يلي :

١ – لقد بدأت بالحجاج لأن دراسة الحجاج كانت جاهزة تقريباً ، ثم اني لم افكر في ان البدء بالحجاج او بابي نواس او بابن المقفع يمكن ان يكون عاملاً اساسياً في اتجاه التفكير .

٢ – ان اثبات المراجع والمصادر – في قائمة مستقلة ثم في الحواشي يتطلب مكاناً على الورق يعرفه الذين عُنوا بهذا النوع من التأليف . انه يتطلب ربع المساحة او خمسها على الاقل .

٣ – ان الموازنة بين آراء المعاصرين عند التعرض لدراسة اديب ما انما هي مثار جدل ، وانا انا في هذه الصفحات احاول تقديم النتائج من غير ان اجادل فيها ، واحياناً اترك بعض الآراء الحديثة لأن النصوص القديمة تعارضها او لأنها لاتستند الى اكثر من جدال خطابي وتزويق لغوي .

٤ – ان هذه الصفحات ليست جُهداً أدبياً من النوع الذي يقضي الانسان اقسم الاوفر من حياته ينقب فيه وينقر . وان العمدة في التأليف الصحيح ان يتحقق المؤلف امراً معيناً محدوداً ، وان يتناول ما رسم لنفسه ان يتناوله . فان الآلة التي تخرج السيارة لا يقدح فيها ان تخرج المسمار اذا اريد منها ذلك .

٥ – ان الانتاج في ايام الحرب محدود بعوامل كثيرة .

التدوين الاداري والترسل الاول

بدء الكتابة :

عبّر العرب في الجاهلية عن آرائهم وافكارهم وخلجاتِ نفوسهم من طريق المخاطبة شعراً ونثراً لا من طريق الكتابة . ثم إنهم حفظوا إنتاجهم الأدبي من جيل إلى جيل من طريق الحفظ والرواية لا من طريق التدوين والكتابة . وان ما رُوِيَ من معرفة بعض الجاهليين للكتابة لا يَزيد في صورة الأدب العربي القديم شيئاً .

على ان رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر بكتابة الوَحي ؛ فكانت آيات القرآن الكريم تُدوَّن عَقِبَ نزولها تماماً . ولكن العرب لم ينقلوا ذلك الى حياتهم الأدبيةِ قطّ ولا الى حياتهم الاجتماعيةِ والسياسية ، إلّا بعدَ حين .

اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم وابو بكرٍ الصِّدّيقُ رَضِيَ الله عنه كُتّاباً يكتبون نصائحَ كثيرة وأموراً إداريةً إلى العُمّال والوُلاة [1] . على ان أول تدوين رسمي بين العرب قام به عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ويَرْجعون ذلك الى روايتين : إحداهما انه ورد الى بيت المال مالٌ كثير فحار عُمَرُ في ضبطه والعَدلِ في توزيعه ، فأُشِيرَ عليه بأن يُدوِّنَ لذلك ديواناً – أي يَتّخذَ سِجِلا – يكتب فيه استحقاق الناس وأسماءهم . والرواية الثانية تقول إنه أُشير على عمر رضي الله عنه حينما أراد ان يرسل جيشاً الى الفتح بان يتخذ لذلك ديواناً – سجلاً – يجمل فيه اسماء المجاهدين وأعطياتِهم . ولِعُمَرَ أيضاً يرجعُ الفضلُ في وضع التاريخ الهِجْريّ ، فأنه أمر أن تؤرخ الكتب والرسائل ؛ وان يكون بدء التاريخ هجرةُ الرسول ، وان يكون بدء السنة الهجرية المحرمُ .

---

(١) الوالي : حاكم المقاطعة . العامل : المشرف على جمع الاموال في المقاطعة .

من الخطابة الى الكتابة

وكان الخلفاء أو الولاة او العمال اذا ارادوا ان يُبلِّغوا المسلمين شيئاً قالوه في خُطَبهم في اوقات الصلوات ؛ وقد اصبحت الخطابة بذلك فناً عظيماً من فنون الادب العربي (١) . ولكن لما اتسعت الفتوح وتفرق الولاة والعمال في الاقطار احتاج الخليفة الى ان يبلغهم أموراً تتعلق بالادارة والسياسة فكان يكتب اليهم بذلك .

ولم يكنْ للرسائلِ — في هذا الدور — خصائصُ أدبيّةٌ تُميِّزُها ، فلقد كانتِ الرِّسالةُ خُطبَةً مُدوَّنَةً ، أو كانت كلاماً عاديا قُيِّدَ بالحروفِ من غيرِ تَنميقٍ ولا التزامِ أسلوبٍ خاصّ .

وكما ان « الخطابة » كانت من مُقتضيات الادارة فكان على الخليفة او الوالي او العامل ان يَرْقى المنابر ليُبلِّغَ سياسةَ الدولة ويبين وجوهها — سواء أُخلِقَ خطيباً أم لم يُخلقْ خطيباً — ، فقد كانت « الكتابة » ايضاً حاجة إدارية ولم تكن فناً مقصوداً لذاته . ويظهر ان العرب كانوا أقدرَ على الخطابة منهم على الكتابة فكانوا كلهم يخطبون . اما الكتابة فكانوا يتركونها لكُتّابٍ يختارونهم من ذوي الأمانة والعِفّة يُملونَ عليهم ما يشاءون إملاء او يطلبون منهم ان « يكتبوا عنهم » ما يُريدون . وقد كان الكاتب في ايام الخلفاء الراشدين شخصاً يختاره الخليفة ويجعله في بِطانته ؛ أمّا في الدولة الاموية فقد أصبحتِ « الكتابة » مَنصِباً ، ثم جعل لها ديوانٌ خاصٌّ — ادارة خاصة — منذ ايام مُعاوِيَةَ على وجه التقريب ، ومنذ ايامِ عبدِ المَلِكِ على التحقيق .

ديوان الرسائل

ديوان الرسائل يشبه رئاسة الوزارة في ايامنا ؛ فرئيس ديوان الرسائل — ويسمى « الكاتب » ينشىء الرسائل التي يبعث بها الخليفة الى الولاة والعمال والملوك الآخرين

(١) اطلب الحجاج بن يوسف — درسات قصيرة ...

ويتلقى الرسائل التي ترد الى الخليفة . وكان الكاتب في اول امره موظفاً بسيطاً لا تتعدى وظيفتـه استملاء الرسائل من الخليفة . على ان عمر بن عبد العزيز كان يكتب رسائله أحياناً بيده .

ولكن لما تشعبت امور الدولة اخذ الخليفة يعتمد على كاتبه شيئاً فشيئاً ، فقد كان قُبيصة بن ذؤيب يكتب لعبد الملك ، « وبلغ من لطافة محله منه انه كان يقرأ الكتب الواردة على عبد الملك قبل ان يقرأها عبد الملك . . . وكان له ذلك عادة . . وقد تساهل سليمان بن عبد الملك وامر كاتبه ان يُوَقِّعَ عنه في رسالة وردت من مَسْلَمَةَ (بن عبد الملك) بفتح بعض بلاد الروم » ؛ ثم اصبح الكاتب مأموناً في ما يكتب ولا يفعل الخليفة شيئاً اكثر من ان يُوَقِّعَ فقط . ولذلك كان الكتّاب كثيراً ما يتلاعبون بالامور ، فقد حُكيَ ان هشامَ (بن عبد الملك) أقطعَ ، قبل أن يَلِيَ الخلافةَ ، ارضاً يقال لها دُورين ؛ فأرسل في قبضهـا ، فاذا هي خرابٌ . فقال لِذُوَيْدٍ – وهو كاتب كان بالشام – : ويحك كيف الحيلة ؟ فقال (ذويد): ما تجعلُ لي ؟ فقال هشام : اربعمائة دينار . فكتب (ذُويد) : دُورين وقُراها ؛ ثم امضاها في الدواوين . فأخذ هشام شيئاً كثيراً . . . »

وقد حصّل الكتّابُ من مناصبهم اموالاً جليلة ، وبلغت الجرأة بهم انَّ قَطَناً مولى يزيدَ بنِ الوليد – وكان يتولى ديوانَ الخاتم والحِجابة – كتب على لسان الخليفة كتاباً بولاية العهد لابراهيم بن الوليد وقرأه على الناس ، فبايع الناسُ لابراهيم على رَغْم الخليفة المُحْتَضَر .

*

وقبل ان ينقضي العصر الاموي كانت الكتابة قد اصبحت صناعـة ذات قَواعدَ واصول – في ايام عبدالحميد الكاتب ، كاتب مروان الثاني – واصبح الكاتب كأنه وزير ، له رأيٌ في امور الدولة وله سلطة عظيمة في تسييرها .

عبد الحميد بن يحيى الكاتب

ترجمته :

ولد ابو غالب عبد الحميد بن يحيى بن سعد في النصف الثاني من القرن الاول للهجرة ، وهو فارسي الاصل . ويُرَجَّح انه ولد في مدينة الانبار — على الفرات — وانه نشأ في الشام (سورية) . واما ولاؤه فكان في بني عامر ، فهو مولى العلاء بن وهب العامري .

وكان عبد الحميد في أول أمره « معلم صبية » في الكوفة أو كان — يتنقل في البلدان » . ثم ان عبد الحميد هجر التعليم وطلب الدخول في حكومة الامويين ، واستعد لذلك بان اتصل بصهره زوج اخته ، سالم بن عبدالله مولى هشام بن عبدالملك — فيما قيل — ، وكان كاتب هشام ؛ فتعلم عبد الحميد على يديه « فن الكتابة » وبرع فيه . ويظهر ان عبدالحميد أصبح كاتباً لهشام (١٠٥ — ١٢٥ هـ ٧٢٣—٧٤٢م) .

وفي أيام هشام أو بعد ذلك بقليل اتصل عبد الحميد بمروان بن محمد ، وكان مروان يومئذ واليا على أرمينية وكتب له وأحسن خدمته ؛ فلما انتقلت الخلافة إلى مروان انتقل معه عبد الحميد من أرمينية إلى دمشق وأصبح الكاتب الاول في الخلافة الاموية .

ولما انتصرت الدعوة العباسية كان عبد الحميد في من قتل من أشياع بني مروان وذلك عام ١٣٢ هـ ٧٥٠ م في أحاديث مختلفة وروايات متناقضة . وقد كان لعبد الحميد عَقِبٌ (ذرية) بَقُوا في مصر إلى أيام أحمد بن طولون (القرن الهجري الثالث والميلادي التاسع) وأصبحوا كتّاباً في دولته ؛ وكان منهم واحد في بغداد .

عناصر شخصيته :

عرف عبد الحميد الفارسية وربما عرف شيئاً من الارمنية أيضاً وأضاف إلى ذلك ثقافة عامة اقتضتها صنعة التعليم التي مارسها . وكان كثير

الذكاء فيما قالوا حسن العقل حتى انه كان عظيم الدالّة على مروان يبدي آراءه يتوقف عليها مصير الخلافة (راجع الجهشياري ٧٢) .

وكذلك كان عبد الحميد مثالا في الوفاء لمروان خاصة ، فقد احب ان يموت معه وقد مات ؛ حسن الصداقة فانه ابى ان يفديه ابن المقفع بنفسه . وكان شديد العطف على زملائه في الكتابة يحضهم على التكاتف ومؤازرة بعضهم بعضا .

منزلته الادبية

ان الترسل وان كان معروفاً عند العرب فان عبدالحميد قد جعل منه فنّاً له قواعده واصوله . ولا شك في ان عبد الحميد اول من اطال الرسائل واستعمل التحميدات في فصول الكتب .... وعنه اخذ المترسلون ولطريقته لَزِموا . وهو الذي سهل سبل البلاغة في الترسل — وجعل الكتابة صِناعة كسائر الصناعات .

ويُقال إن عبدَ الحميد زاوج بين الاسلوب العربي والاسلوب الفارسي في الكتابة كما فعل ابن المقفع [1] ، الا انه زاد على ابن المقفع في انه قصد الى التصنيع بينما لم يزد ابن المقفع على أنْ ترك نفسه على سجيتها . ولكنّ هذه المزاوجة لا يمكن البت فيها الا بعد درس ومقارنة بين النصوص العربية الاموية والنصوص الفارسية المعاصرة لها ؛ وليس بين يدينا شيء من النصوص الفارسية .

واما خصائص اسلوب عبد الحميد فهي التي تلي :

(١) إطالة التَحميدات = التحميدُ حمدُ الله تعالى وتَعدادُ آثاره وذكرُ آلائه . وقد اطال عبد الحميد ذلك في مطالع الرسائل خاصة :

« الحمدُ للهِ العليِّ مكانُه ، المنيرِ برهانُه ، العزيزِ سلطانُه ، الثابتةِ كلماتُه ، الشافيةِ آياتُه ، النافذِ قضاؤه ، الصادق وعدُه .... الذي قَدَرَ على خلقه بُأسكه ، وعَزَّ في

(١) استخرج الاستاذ المقدسي (تطور الاساليب النثرية ١ : ١٥٦ — ١٥٩) موازنة بين عبد الحميد وابن المقفع جاءت جد موفقة . فلتراجع هنالك للتوسع .

سماواته بعظمته ودبّر الامورَ بعلمه وقدّرها بحكمته على ما يشاء من عزمه ، مُبتَدِعاً لها بانشائه إيّاها وقُدرته عليها ، واستصغاره عظيمها . . . »

(٢) الإسهاب في التعبير = ومن عادة عبد الحميد أنْ يُعبّر عن المعنى الواحد بتراكيب مختلفة إما لزيادة التبيان واما لأمر تقتضيه البلاغة من موازنة :

« فاذا افضيت نحو عدوك واعتزمت على لقائهم واخذت أهبةَ قتالهم فاجعل دِعامتك التي تلجأ اليها وثقتك التي تأمل النجاة بها وركنك الذي ترتجي به . . . »

(٣) تخير الالفاظ والعبارات = واسلوب عبد الحميد بعيد عن ان يكون جارياً على السَجيّة ، بل هو صِناعة حاذقة ونَمطٌ مُتَخَيَّر :

« أما بعدُ ، فإنّ امير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك الى (عدو الله الجلف الجافي ، الاعرابي المتسكع في حَيرة الجهالة ، وظُلَم الفِتنة ، ومهاوي الهلكة ؛ ورُعاعِهِ الذين عاثوا في الارض فسادا ، وانتهكوا حُرَمَه استخفافاً ، وبدّلوا نِعَمَ الله كفراً ، واستحلوا دماء اهل سِلمه جهلًا ، . . .) »

(٤) الموازنه والسجع = الموازنة ان تأتي بجمل متتالية على نسق مخصوص تلتزم في كل جملة منها عدداً معيناً من الكلمات كقول القرآن الكريم : « يا ايها المُدّثر . قم فانذر . وربّك فكبر . وثيابك فطهّر . والرجزَ فاهجر . ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر . فاذا نُقِرَ في الناقور . . . » . ويحسن ان تكون الكلمات المتقابلة على صِيَغ متشابهة .

ولقد اقتبس عبد الحميد هذه الموازنة واكثر منها وتفنن في نَسقها كقوله :

« واعلم ان الظفر ظفران : احدهما اعم منفعة ، وابلغ في حسن الذكر قالة ، واحوط سلامة ، واتمه عاقبة ، واحسن في الامور مورداً ، واصحه في الرواية حزما ، واسهله عند العامة مصدرا . . . »

و كذلك السجع فانه من خصائص اللغة العربية منذ الجاهلية ؛ على ان عبد الحميد لم يتكلف السجع بل اخذ منه بقدر فقد تجد جمله مسجوعة آناً ومهملة آناً ، وقد يكون السجع فيها صريحاً او غير صريح كما رأيت في الامثلة السابقة . ومع ان عبد الحميد اكثر تطلباً للتسجيع في تحميداته منه في رسائله ، فان تحميداته نفسها قليلة السجع . على ان هنالك اماكن قليلة تكلف فيها السجع تكلفا ظاهراً [1] :

« ويرد على ذلك حزبه المنصور من الكهول ، على الفحول ، كأنه الوعول ، تخوض الوحول ، طول السبال ، تختضب بالجريال ، رجال هم الرجال ... »

(٥) الابتعاد عن البديع = وعبد الحميد لا يتكلف البديع من جناس وطباق ولا يَتَطَلَّبُهُ . ولو أننا رَجَعْنا إلى «رسالته إلى الكتّاب» لوجدنا أنها نحو ألف كلمة ، ومع ذلك فانك لا تجد فيها من البديع إلا مثل قوله : « مِقداماً في موضع الاقدام ، محجاماً في موضع الاحجام ... السرف ... والترف ... أوضحها محجة وأصدقها حجة ... غير كاف ... وغير خاف ... في حالة الشدة والرخاء ... والسراء والضراء ... فإذا عرف حَسَنها وقَبيحها ... » . وهذه كلها كلمات تعرض للناس كلهم لتواردها في الخواطر وشيوعها في التعابير ؛ وليس فيها شيء يتميز به اسلوب عبد الحميد ، ولا شيء يعجز عنه من هو دون عبد الحميد .

*

المختار من رسائل عبد الحميد

لعبد الحميد شعر قليل ورسائل تبلغ الف ورقة (عشرين الف سطر) أو ما يملأ نحو ثمانماية صفحة من مثل هذه الصفحات . على ان أكثر هذه الرسائل ضائع ولم يبقَ منها سوى بضع رسائل موجزة وبعض رسائل مطولة .

١ * . رسالة موجزة في التوصية بشخص :

---

(١) راجع تطور الاساليب النثرية ١٦٠ نقلا عن صبح الاعشى ٨ : ٢٦٨

« حق موصلِ كتابي إليك كحقهِ عليّ ، إذْ جَعَلَك موضعاً لأمله ورآني أهلاً لحاجته . وقد أنجزتُ حاجتَه فصَدِّقْ أَمَلَه » .

٢ * . رسالة موجزه في الرد على عامل اهدى الى مروان عبداً أسودَ :

« لو وجدتَ لوناً شراً من السواد وعدَداً أقل من الواحد لاهديته ، والسلام » .

٣ * . رسالة مطولة جداً بل هي أطول رسائله ، كتبها إلى أبي مسلم الخراساني لما اتسعت دعوة بني العباس . قيل ان الرسالة حملت على جمل لطولها (المقصود أن الرسالة طويلة جداً وليس معنى ذلك انه كتبت على ورقٍ مقدارِ حمل جمل) .

وتقول الرواية ان ابا مسلم احرق هذه الرسالة لما وصلت اليه ، ولم يُعرف منها بعد ذلك إلا الجملةُ التالية :

« . . . إذا أراد الله اهلاك نملة أنبت لها جناحين . . . »

٤ . رسالة مطولة [1] في نصيحة ولي العهد عبد الله بن مروان — وكان على الجزيرة — لما خرج الضحاك بن قيس الشيباني على الامويين ١٢٧ — ١٢٨ هـ (٧٤٤ - ٧٤٥م) :

« أما بعدُ فأن أمير المؤمنين عندما اعتزم عليه من توجيهك إلى عدو الله الخلف الجافي . . . أحب أن يعهد . . . عهداً يُحَمِّلك فيه أدبه ويَشرَعُ لك عِظَتَه ، وان كنتَ — والحمد لله — من دين الله وخلافته بحيثُ اصطنعك لولاية العهد . . .

« أعلمْ أن للحكمة مَسالكَ تُفضي مَضايق أوائلها . . . الى سَعَةِ عاقبتها . . . وقد تَلقَّتك أخلاقُ الحكمة من كل جهة بفضلها من غير تعب البحث في ادراكها . . .

« واعلم أن كل أعدائك لك عدوّ يحاول هَلَكَتك ويعترض غَفلَتك لأنها خِدَع إبليسَ وحبائل مكره ومصائد مكيدته فاحذرها مجانبا . . . وجاهدها إذا تناصرتْ عليك بعزم صادق لا وِنيَةَ فيه ، وحَزْم نافذ لا مَثْنَوِيَةَ لرأيك بعد إصداره عليك ،

---

(١) صبح الاعشى ١ : ١٩٥ — ٢٣٣ ، رسائل البلغاء (الطبعة الثانية) ١٣٩ — ١٦٤ .

وصِدقٍ غالبٍ لا مَطمع في تكذيبه ... فاجتلبْ لنفسكَ محمودَ الذكر وباقيَ لِسانِ الصِدقِ بالحذر لِمَا تقدَّم فيه أميرُ المؤمنين ...

« ومنها ان تَملِكَ أمورك بالقصدِ وتصونَ سِرَّكَ بالكِتمان وتداريَ جُندك بالإنصاف وتُذلِّلَ نَفسك للعدل وتُحَصِّنَ عيوبَك بتقويم أوَدِك . وأناتُك فوقَها المَلالَ وفوت العمل ؛ ومصابك [1] فدَرِّعها رؤية [2] النظر واكتنفها باناة الحلم ، وخلواتُك فاحرُسها من الغفلة واعتماد الراحة ، وصمتُك فأنفُ عنه عِيَّ اللفظ وخَفَّ فيه سوءَ المقالة ...

« واياك وان يظهرَ منك تَبرُّمٌ بمجلسك وتَضَجُّر بمن حَضَرَك ؛ وعليك بالتَثَبُّت عند سَوْرة الغضب وحَمِيَّةِ الانف ومَلالِ الصبر في الامر تستعجل به ، والعمل تأمر بإنفاذه ، فان ذلك سَخَف سائر وخفة مُرْدِيَةٌ وجهالة بادية ...

« ثم أذكِ عيونك [3] على عدوك مُتطلِّعاً لعلم أحوالهم التي يتنقلون فيها ، ومنازلهم التي هم بها ، ومطامعهم التي مدوا بها اعناقهم نحوها ...

« واحفظ من عيونك وجواسيسك ما يأتونك به من اخبار عدوك ؛ واياك ومعاقبةَ أحدٍ منهم على خبر ان أتاك به اتَّهَمْتَه فيه او سُؤْتَ ظناً عليه ، واتاك غيرُه بخلافه ، وأن تُكذِّبَه فيه وتردَّه عليه ...

« واعلم ان جواسيسك وعيونك ربما صَدَقوك وربما غَشُوك ، وربما كانوا لك وعليك فنصحوا لك وغَشُّوا عدوَّك ، وغشوك ونصحوا عدوك ... واحذران يُعرف جواسيسُك في عسكرك او ان يُشار اليهم بالاصابع .... واعلم ان لعدوك في عسكرك عيونا راصدةً وجواسيسَ كامنةً ... واحذرْ ان يَعرِفَ بعضُ عيونك بعضاً فإنك لا تأمن تَواطُئَهُمْ ومُمالَئَتَهُمْ عدوَّك واجتماعهم على غِشِّك وتكذيبك ...

---

(١) كذا في الاصل (٢) كذا في الاصل ولعلها : روية .
(٣) العيون : الجواسيس ، اذكى : (هنا) نبه ، ايقظ ، نشط .

« ثم تقدّم في طلائعك فإنها اول مكيدتك ورأس حربك ... فانتخب لها من كل قادة وصحابة رجالا ذوي نَجدة وبأس وصَرامة وخِبرة ... قد صَلُوا بالحرب وتذاوقوا سِجالها .. ونجّذهم من السلاح بابدان الدروع ماذية الحديد، ... متقاربة الحَلَق ، متلاحمة المسامير ...

« واحذرْ أنْ تَكِلَ مباشرةَ عَرْضِهم الى احد من أعوانك او كُتّابك ، فانك ان وَكَلْته اليهم أضعت موضعَ الحزم وفرّطت حيث الرأيُ ... واعلم ان الطلائع عيونٌ وحصون المسلمين فهم اول مَكيدتك وعُروة امرك وزِمام حربك ، فليكن أعتناؤك بهم بحيث هم من مُهِمّ حَربكِ ... ! »

٥ . رسالة في الشطرنج — امر الخليفة بكتابة هذه الرسالة الى احد الولاة يأمرُ فيها بمنع الناس من اللعب بالشطرنج وبمعاقبة من يأخذهم الشرطة بالحبس وبطرح اسمائهم من الديوان (اسقاط ما يتناولونه من المال) لان الشطرنج اصبح تَلْهِيَةً للناس عن الصلوات . والتحميد في هذه الرسالة يبلغ نصفها

« ... فكان مما قدم اليهم فيه نَهْيُه ؛ واعلمُهم سوء عاقبته وحذّرهم امرَه وأوْعَز اليهم — ناهياً وواعظاً وزاجراً — الاعتكافَ على هذه التماثيل من الشَّطْرَنج والمواصلة عليها لما في ذلك من عظيم الاثم ومُوبق الوِزْر مع مَشْغَلَتِها عن طَلب المعاش وإضرارها بالعقول ومنعِها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميعِ المسلمين ...

« ... وتقدم الى عاملِ شُرْطَتِك في إنهاك العقوبة لمن رُفِعَ اليه من اهل الاعتكاف عليها وإظهار اللَّعِبِ بها ، وإطالةِ حبسه في ضيقٍ وضَنْكٍ وطَرْحِ اسمِهِ من ديوان امير المؤمنين ... »

٦ . رسالة الى الكتاب — هذه رسالة تخرج عن معنى الرسائل الادارية ؛ انها في الحقيقة « موضوع في شكل رسالة » او هي اساس لكتاب مؤلف في آداب الكتابة وقواعدها . وفي هذه الرسالة فكرة اجتماعية جديدة في تاريخ العرب وتاريخ غير العرب

ايضاً ، فان عبد الحميد نظر الى « كتاب الدواوين » على انهم هيأة منظمة و نقابة محدودة . فاوصى بعض الكتاب ببعض وحث الاقوياء منهم وذوي الجد واليسار على مساعدة الفقراء ومن عجز عن متابعة صناعته :

« اما بعدُ ، حَفِظكم الله ، يا اهلَ صناعة الكتابة ... فان الله عز وجل جعل الناس بعد الانبياء والمرسلين ، صلواتُ الله وسلامُه عليهم أجمعينَ ، ومن بعد الملائكة المُقرَّبين أصنافاً — وان كانوا في الحقيقة سواء — وصَرَّفهم في صنوف الصناعات وضُروب المحاولات الى أسباب مَعاشِهم وأبواب رِزقهم . فجعلكم — معشرَ الكُتَّاب — في اشرف الجهات ، اهلَ الادب والمُروءات . . . بكم تنتظم للخلافة محاسنُها وتستقيم امورُها . . . فموقِعُكم من الملوك موقعُ أسماعِهم التي بها يسمعون وأبصارهم التي بها يُبصِرون ، وألسنتِهم التي بها ينطِقون وايديهم التي بها يبطُشون ...

فتنافسوا — يا معشرَ الكُتَّاب — في صُنوف الآداب وتفقهوا في الدين وابدأوا بعلم كتاب الله عز وجل ؛ ثم العربيةِ فانها ثِقافُ ألسنتكم . ثم اجيدوا الخط فانه حِلْيَةُ كُتُبكم ، وأروُوا الاشعارَ وأعرِفوا غريبَها ومعانيها وايامَ العربِ والعَجَمِ واحاديثها وسِيَرَها ، فإن ذلك معينٌ لكم على ما تسمو اليه هِمَمُكم . ولا تُضيعوا النظرَ في الحساب فانه قِوام كتاب الخراج . وارغبوا بانفسكم عن المطامع سَنِيِّها ودَنِيِّها . . . ونزِّهوا صناعتكم عن الدَّناءة وأربأوا بأنفسكم عن السِّعاية والنَّميمة ..

« وتحابّوا في الله عز وجل في صِناعتكم وتواصَوا عليها بالذي هو أليقُ لأهلِ الفضل والعدل والنُّبل من سَلفِكم . وإنْ نبا الزمانُ برَجُل منكم فأعطِفوا عليه وواسوه حتى ترجِعَ اليه حالُه .. وإن اقعَدَ احداً منكم الكِبَرُ عن مكسبه ولِقاء إخوانه فزوروه وعظِّموه وشاوِروه وأستظهروا بفضل تجرِبَتِهِ وقديم مَعرِفته . وليَكُنِ الرجلُ منكم على من اصطَنَعَهُ وأستَظْهَرَ به ليوم حاجتِهِ اليهِ إحوطَ منه على وَلَدِهِ وأحبَّ ؛ فان عَرَضت في الشُّغل مَجْمَدَة فلا يَصرِفها إلاّ إلىَ صاحبِهِ ، وإنْ عرضت مَذمَّةٌ فَلْيَحمِلْها هُو مِنْ دونهِ . . . »

الترسل الفني

تناول عبد الحميد الكاتب الرسائل الادارية في الربع الاول من القرن الهجري الثاني فوسعها وتصرف في انشائها مضيفاً اليها بعض وجوه البلاغة على ما رأيت في خصائصه . وقد صرّف عبد الحميد الترسل ايضاً من الناحية الادارية الى الناحية الاخوانية فكتب رسالة في «وصف الاخاء» ، وثانية في « التهنئة بمولود » وغيرها في « التوصية بشخص » ، ورابعة « الى اهله وهو منهزم مع مروان » .

هذه الاخوانيات قديمة في اللغة العربية — شعراً ونثراً — اذا اعتبرنا ان العتاب داخل فيها فلقد رأينا العتاب واضحاً في شعر النابغة ، ورأينا البحتري يطلب خمراً من صديق له . على ان غايتنا هنا ان نعرض للرسائل التي كان الاصدقاء والاقرباء يتبادلونها بينهم في اغراض شخصية لا صلة للسياسة العامة ولا للامور الادارية بها .

ولما شاعت الرسائل في الناس برز فيها امران بروزاً شديداً :

(١) اصبح التَّرَسُّل فناً له قواعدُه واصوله وملابساته حتى خرج عن طَوْق عامةِ الناسِ فتصدَّى لـه الادباء الكبار والكُتَّاب المُنْشِئون من اصحاب الوَزارة الادارة كابن العميد والصاحب بن عَبَّاد ، او من الذين وُهِبوا المقدرةَ والذوقَ والتأنُّقَ كالخوارزمي وبديع الزمان والحريري .

ولما كان التأنق في الرسائل ضرورياً لكل من اراد ارسال رسالة فقد نشأ « كتَّابٌ » اتخذوا كتابة الرسائل للآخرين صِناعةً يَتَقاضَوْنَ عليها الأجرَ[1] .

(٢) كانت الغاية من الرسالة إظهار المقدرة الفنية من ناحية البلاغة وابراز ما يحفَظُ المنشيء من أمثال العرب واشعارهم وما يعرِف من علومهم في الصرف والنحو والعَروض (الشعر) والفقه ، بصرف النظر عن الغرض الاساسي الذي تُنشأُ الرسالة من اجله . حتى ان بعض الرسائل لم يكن لها غرض خارج عن اظهار هذا التأنق اللغوي وهذه الثروة الكلامية المجموعة في الذاكرة .

---

(١) راجع تطور الاساليب النثرية ١ : ٢٧٥

على ان الذي يهمنا هنا اسلوبُ الرسائل واسلوبُ المقامات فقط؛ ويجب ان نقدم الكلام على اسلوب الرسائل لانه اسبق في تاريخ الأدب من اسلوب المقامات .

اسلوب الرسائل الفنية

لقد كشف البحث عن ان خصائص النثر في القرن الهجري الرابع – عصر المتنبي في الشعراء وابي الفرج الأصفهاني وابن العميد وبديع الزمان الهمذاني والفارابي في الناثرين – لم تكن جديدة مبتدعة وانما كانت خصائصَ ملموحةً في اساليبِ المتقدمين. ثم لما جاء منشئو القرن الرابع أطنبوا فيها وبالغوا ، وشقُّوا منها ووَلَدوا .

١ . الخصائص المعنوية = اتسعت اغراض النثر في القرن الرابع اتساعاً كبيراً فتناولت الموضوعات العقلية كما في كتب الفارابي الفيلسوف ؛ وتناولت الموضوعات الجدلية في الدين والفقه كما في كتب ابن حزم الاندلسي ؛ وتناولت الموضوعات القصصية كالمقامات والاحاديث ؛ وتناولت التراجم الأدبية كما في يتيمة الدهر للثعالبي وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني .

ثم ان الرسائل التي كان الاخوان والأصدقاء يتبادلونها فيما بينهم والمقامات التي خلقت فناً جديداً للتعبير كانت تنطوي على جميع هذه البحوث والموضوعات .

ومال المنشئون الى الفكاهة فوسّعوا موضوعها ، فبعد ان كانوا يتفكهون بالنُكتة ويتنادرون بالمُلحة يتناقلونها أصبحوا يتناولون فكرة ما فيعالجونها معالجة فكاهية : لقد أصبح عندهم موضوعات فكاهية . على انهم كانوا يميلون أحياناً الى الرمز في معالجة مثل هذه الموضوعات وأحياناً يطّرحون الحشمة في ذلك ويذكرون ألفاظاً بذيئة وآراء ساقطة وأفكاراً ليست من حسن الأخلاق ولا من حسن الاجتماع في شيء .

٢ . الخصائص اللغوية = لقد اختلفت الخصائص الفنية في أساليب المنشئين باختلاف الموضوعات التي عالجوها فالفارابي الفيلسوف وأبو الفرج صاحب التراجم الأدبية وابن حزم الفقيه المتفلسف اندفعوا في السبيل السهل وتركوا اسلوبهم بسيطاً « عادياً » يتكيف حسب حاجتهم الى التعبير عن آرائهم بينما كان هنالك من يعتمد التأنق اللفظي ويبالغ فيه كالثعالبي صاحب يتيمة الدهر .

(أ) السجع = لقد كان السجع مَيْزَةً عامةً في النثر ، على ان المنشئين ذهبوا فيه ثلاثةَ مذاهبَ : مذهبَ الإيغال ومذهبَ الاعتدال ومذهبَ الإهمال .

(ب) التصنيع = وكان غرام المنشئين بالصَناعة عظيماً حتى أصبحتِ الصَناعة نفسُها « الغرضَ » الأولَ من إنشاء الرسائل عند بعضهم .

(ج) الموازنة = وأوغل المنشئون عامة في المقابلة والموازنة ووقفوا هِمَّتَهم على أن يؤثِّروا في القارىء أو السامع من طريق « رصف » الكلمات رصفاً هندسياً متناسقاً محكماً ، حتى ان القارىء نفسَه ليسعى تَطَلُّبَ المعاني وهو يتابع هذا البناء الهندسي الجميل من الكلمات المتوازنة والمعاني المتقابلة والأحرف المعجمة (المنقوطة) مرة والمهملة مرة في ترتيب جَلْدٍ حاذق .

(د) الاطناب = وما دام اعتماد المنشىء ، في رسائله ، على الديباجة في الدرجة الاولى فان اللفظ يكون في هذه الرسائل أوسع من المعنى حتى أن المنشىء ليدير الفكرة الواحدة أو المعنى الواحد في بضعة أسطر . فاذا نَزَعْتَ المعنى الأساسي وسبكته في لغة سهلة تضاءلت تلك السطور الى سطر واحد أو سطرين اثنين .

(هـ) الاقتباس والتضمين = ويوشي المنشىء رسائله عادة بالآيات والأحاديث أحياناً وبالشعر والأمثال ، لا لأنَّ كلَّ ما يستشهد به ضروري لتبيان المعنى ولكن لأمرين اثنين : أحدهما ان يدل بذلك على ثروته الأدبية ، وثانيهما ان يجعل من

الفِقَرات المقتبسة بناء فنيًّا متقابلًا متوازناً . فمن أشهر ما يمكن أن يُشار اليه رسالةُ بديع الزمان الهمذاني الى أبي بكر الخوارزمي :

أنا لقرب الاستاذ أطال الله بقاءه (كَما طَرِبَ ٱلنَّشوانُ مالَتْ بِهِ ٱلخَمْرُ) . وَمِن ٱلِارْتِياح للقائه (كَما ٱنتَفَضَ ٱلعُصْفُورُ بَلَّلَهُ ٱلقَطْرُ) . وَمِنَ ٱلِامْتِزاج بوَلائه (كَما ٱلْتَقَتِ ٱلصَّهْباءُ وَٱلبَارِدُ ٱلعَذْبُ) . وَمِنَ ٱلِابْتِهاج بمرآه (كَما ٱهْتَزَّ تَحْتَ البارِحِ ٱلغُصْنُ ٱلرَّطْبُ) . فكيف نشاط الاستاذ لصديق . . .

(و) مطالع الرسائل = كان للرسائل في الحقبة التي ندرسها مطالع موجزة على كل حال ولكنها تجري على وتيرة واحدة . وتنقسم هذه المطالع قسمين . تجد قسماً منها يبدأ بالدعاء للمكتوب اليه في صيغ محدودة ، نحو (من رسائل الهمذاني) :

كتبتُ – أطال الله بقاء الشيخ الجليل – . . .

كتابي – أطال الله بقاء الشيخ الجليل –

ما أظن – أطال الله بقاء الشيخ –

جزى الله الشيخ النبيل

كتابي – أطال الله بقاء سيدي ومولاي –

وردت رقعتك – أطال الله بقاءك –

وهنالك قسم من الرسائل يبدأ – من غير توجيه – اما ببيت من الشعر أو اكثر أو بالموضوع رأساً نحو :

* فهمت رقعتك وسررت بسلامتك وفهمت ما ذكرته من أمر فلان . .

* غضب العاشق أقصر عمراً ، من أن ينتظر عذراً ؛ وإن كان في الظاهر مهابة سيف ، انه في الباطن سحابة صيف .

وأحياناً يبدأ المنشيء رسالته بدءاً طبيعياً وبعد بضع كلمات أو بضعة أسطر يأتي على ذكر الرجل الذي وجّه اليه الرسالة نحو :

حثوا المَطِيَّ فهـذه نجد غلب الهوى وتطلع السعد

وقد برح الشوق برحاً ، لا استطيع له شرحا ، وغلى الوجد غليا لا يَرِده صبر ، ولا يسعه صدر .

وابرح ما يكون الشوق يوماً إذا دنت الديار من الديار

(فحيّا الله طلعة الشيخ وبارك في مقدمه) . . .

المقامات وخصائصها العامة

المَقامَةُ قِصَّةٌ وجيزةٌ أو حكاية قصيرة مبنيـة على الكُدْيَةِ (الاستعطاء) وعناصرها ثلاثة :

(١) راويةٌ ينقلها عن مجلس تحدُث فيه .

(٢) مُكدي (بطل) تدور القصة حوله وتنتهي بانتصاره في كل مرة .

(٣) مُلحة (نكتة ، عُقدة) تُحاك حولها المقامة ؛ وقد تكون هـذه الملحة بعيدة عن الاخلاق الكريمة وأحياناً تكون غثَّة أو سَمْجة . وتبنى المقامة على الاغراق في الصَناعة اللفظية خاصة والصَناعة المعنوية عامة .

نحدر فن المقامات :

ليس فيما أُثِرَ عن العرب مقامات سابقة على مقامات بديع الزمان الهمذاني (٣٥٨ — ٣٩٨ هـ) ؛ فهو من أجل ذلك مخترع هذا الفن [١] على أن بعض الأدباء يحبون أن يقولوا إن بديع الزمان اشتقَّ فن المقامات من فن قصصي سابق . ويريد الدكتور زكي مبارك [٢] أن يثبت ان مقامات بديع الزمان مشتقَّة « من أحاديث ابن دُريد » ، وابن دريد هذا كان راوية وعالماً ولغوياً وقد عُني برواية أحاديث عن الاعراب وأهل الحضَر . ولا ريب في ان بين أحاديث ابن دُريد وبين المقامات شَبَهاً قوياً من حيثُ القَصَصُ والسجعُ ، ولكنَّ هناك أيضاً فروقاً كبيرة في الصَناعة وفي العقدة وفي وجود بطل للمقامات هو المكدي ، وفي أنباء المقامة على الكدية وعلى الهزء من عقول الجماعات مع إظهار المقدرة في فنون العلم والأدب ؛ إلى مـا هنالك من خصائص فن المقامات .

---

(١) مقامات الحريري (بيروت ١٨٧٣) ص ١٣ .

(٢) النثر الفني ١ : ١٩٧ وما بعدها .

على ان هذا لا يعني ان بديع الزمان لم يطلع على أحاديث ابن دريد أو على ما رُوي عن العرب من قِصَصٍ وأحاديثَ وأسمارٍ، ولكن الفرق بين تلك الأحاديث وبين المقامات من حيث الغاية والاسلوب كبير جداً . وعلى كل فان بديع الزمان إن لم يكن مخترع فن المقامات ، فان مقاماته أقدم ما وصل الينا من هذا الفن الأدبي الرائع .

خصائص المقامات

والمقامات خصائص نستعرضها مع شيء من التبيان لأوجهها .

١ . المجلس = يجب أن تدور حوادث المقامة في مجلس واحد لا تنتقل منه إلا في ما شَذَّ وندر (وحدة مكان ضيقة) .

٢ . الراوية = ولكل مجموع من المقامات راويةٌ واحدٌ ينقلها عن المجلس الذي تحدث فيه .

٣ . المكدي = ولكل مجموع من المقامات مُكدٍ واحد أيضاً — أو بطلٌ . وهو شخص خيالي في الأغلب ، أبرز ميزاته انه واسعُ الحيلة ذَرِبُ اللسان ذو مقدرة في العلم والدين والأدب ، وهو شاعر وخطيب ؛ يتظاهر بالتقوى ويضمر المجون ، ويتظاهر بالجد ويضمر الهزل . وهو يبدو غالباً في ثوب التاعس البائس إلا أنه في الحقيقة طالب منفعة .

وتنعقد المقامة دائماً بان يجتمع الراوية بالمكدي في مجلس واحد . ويكون المكدي دائماً متنكراً ، ولذلك قلما يفطن الراوية لوجوده — اذا كان قد سبقه الى المجلس — أو لحضوره اذا حضر بعده . وتنحل عقدة المقامة بان ينكشف أمر المكدي للراوية في الأقل أو يَكشِفَ المكدي أمره للراوية (وأحياناً للحاضرين) في الأغلب . ولا يَكشِف المكدي أمره إلا بعد أن يكون قد نال من أهل المجلس

مالاً أو ثياباً، بعد ان استدر عطفهم . وكثيراً ما يعلم أهل المجلس ان المكدي قد خدعهم وسلبهم، ولكنهم لا يُضمِرون له شراً لأنه أطربهم أو سلاهم أو أفادهم.

٤ . المُلحة (النكتة أو العقدة) = وهي الفكرة التي تدور حولها القصة المُتَضَمَّنَةُ في المقامة ؛ وتكون عادة فكرة طريفة أو جريئة ، ولكنها لا تَحُثُّ دائماً على الأخلاق الحميدة ؛ وقد لا تكون دائماً موفقة .

٥ . القصة نفسها = كل مقامة وَحدَةٌ قَصَصِيَّةٌ قائمة بنفسها ، وليس ثمة صلة بين المقامة والمقامة إلا ان المؤلف واحد والراوية واحدة والمكدي واحد . وقد تكون القصص من أزمنة مختلفة سابقة وان كان الراوية واحداً .

٦ . موضوع المقامة = موضوعات المقامات مختلفة منها أدبي ومنها فقهي ومنها فكاهي ومنها حماسي ، ومنها خمري أو مجوني . وهذه الموضوعات تتوالى على غير ترتيب مخصوص عند بديع الزمان . اما الحريري فالتزم أن تكون الموضوعات متعاقبة على نسق مخصوص . وقد تكون المقامة طويلة أو قصيرة .

٧ . اسم المقامة = واسم المقامة مأخوذ عادة من اسم البلد الذي انعقد فيه مجلس المقامة نحو : المقامة الدِمَشقية ، التَبريزية ، الرَملية (نسبة إلى الرملة بفلسطين) ، المغربية ، السَمَرقَندية ، البَلخية ، الكُوفية ، البَغدادية ، العِراقية ، الخ ؛ أو من الملحة التي تنطوي عليها المقامة نحو المقامة الدينارية ، الخَرزية ، الشِعرية ، الإبليسية ، الحمرية الخ .

٨ . شخصية المقامة = ان الشخصية التي تبدو في المقامة ليست شخصية المكدي ولكنها شخصية المؤلف . وتنبني هذه الشخصية على الدراية الواسعة بكل شيء يطرقه المكدي ، أو المؤلف على الأصح فهو واسع الاطلاع على العلوم العربية خاصة ؛ بصير بالفنون الأدبية من شعر ونثر وخطابة ؛ حاد

الذهن قوي الملاحظة في حل الألغـاز وكشف الشبهات ؛ مرح طروب في اجتياز العقبات وسلوك المصاعب .

٩ . الصناعة في المقامات = فن المقامات فن تصنيع وتأنق لفظي (وخصوصا عند الحريري) فهناك إغراق في السجع وإغراق في البديع من جناس وطباق ، وإغراق في المقابلة والموازنة وفي سائر أوجـه البلاغة حتي ما لا يدخلُ في باب البلاغة على وجه الحصر : كالخُطبة التي تقرأ طَرْداً وعكساً والخُطبة المُهْمَلة (التي لا نُقَطَ فيها) أو التي تتعاقب فيها الأحرف المُهْمَلة والأحرف المعجمـة (المنقوطة) وما إلى ذلك .

١٠ . الشعر = المقامة قصة نثرية ولكن قد يتخللها شعر قليل أو كثير من نظم صاحبهـا على لسان المكدي ، أو من نظم بعض الشعراء ، فيما يروى ، على لسان المكدي أيضاً . وقد يكون إيراد الشعر لاظهار المقدرة في النظم أو لاظهار البراعة في البديع (عند الحريري خاصة) .

بديع الزمان الهمذاني

ترجمته

وُلِدَ بديعُ الزمان أبو الفضل أحمد بن الحسين بمدينة هَمَذان وهي مدينة في شَمالي فارس وإليها ينسب . وقد كانت ولادته في ١٣ جُمادَى الثانية سنة ٣٥٨ هـ (٥ أيار ٩٦٩ م) . وفي همذان نشأ بديع الزمان ، وفيها أيضاً درسَ على أبي الحسين أحمد بن فارس اللغوي النقادة المشهور والمُتَوَفَّى بالري سنة ٣٩٠ في الأشهر . وكذلك درس على عيسى بن هشام الإخباري .

وفي سنة ٣٨٠ هـ (٩٩٠ م) ترك بديع الزمان همذان وفارق استاذه ابن فارس وذهب إلى الرَيّ . وهنالك اتصل بالصاحب بن عَبّاد ، فأدرك عنده جاهاً ومالاً ، ثم إنه قَدِمَ جُرجان وأقام بها مدة على مُداخلةِ الاسماعيلية والتَعَيُّش في أكنافهم .

ثم أن بديع الزمان ترك جرجان فوصل إلى نيسابور سنة ٣٨٢ هـ بعد ان سلبه الأعراب في الطريق ما كان يملك من مال ومتاع . وفي نيسابور « نشر بَزَّه وأظهر طَرْزه » وأملى على إحد الكتاب أَرْبَعِمائةِ مَقامَةٍ — في زعمهم — . وقد كان البديع يؤمل أن يتصل بأديب نيسابور الكبير ، أبي بكرٍ الخوارزمي ، لينالَ شيئاً من الحظ الأدبي على يديه . ولكنّ الخوارزميَّ لم يحسنِ أستقباله ، فغاظ ذلك بديعَ الزمانَ واخذ يراسله معاتباً ويعرّض به ويُطاوله ويتحدّاه ، حتى أستفز جماعة أجمعوا على الجمع بينهما في جلسةِ مناظرةٍ اولى ثم ثانيةٍ خرج منهما بديع الزمان ظافراً . فانتشر لذلك صيته واغتم الخوارزمي ، ثم أخذ يطعن في مقامات بديع الزمان ، ولكنه لم يُعَمَّرْ بعد ذلك بل مات قبل ان يَحولَ الحَوْلُ على هذه المناظرة (٣٨٣ هـ ، ٩٩٣ م) .

وخلا الجو الآن لبديع الزمان فحاز الزعامة الأدبية في المشرق كله واقبلت الدنيا عليه ، ولكنه لم يُمَتَّع بذلك طويلاً فتوفي ولم يُجاوز الأربعين في ١١ جمادى الآخرة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) . مسموماً ؛ وقيل أُصيب بالسكتة ودفن قبل أن يموت ، فسمع صوته بالليل فنبشوا عنه ولكنهم وجدوه مَيْتاً من هول القبر [١]

عناصر شخصيته

كان بديع الزمان مقبول الصورة خفيف الروح قوي النفس حلو الصداقة والعداوة . ولكن يظهر أنه كان أيضاً ظاهر الأنانية والغرور ، والدليل على ذلك مهاجمته للخوارزمي بعد ما جرى من الصلح بينهما . . . لأنه كان طامعاً بمركزه [٢] . وكان عظيم التقى كثير التعصب لأهل الحديث والسنة شديدَ الميل على المعتزلة ، يحب العرب ويكره الشعوبيين ، لأنه عربي .

وكان صافي الذهن قوي الذاكرة سريع الخاطر يحفظ القصيدة الطويلة من مرة واحدة ؛ وينتهي من الرسالة أو الكتاب حينما يطلبان منه بلا إبطاء . وربما بدأ بآخر سطر من الرسالة أو بآخر بيت من القصيده ثم انتهى إلى المطلع عكساً . وتراه يُدخل الشعر في النثر أحسن ادخال واقتباس « وكلامه كله عفو الساعة وقبض اليد » . وربما ارتجل تعريب الشعر الفارسي إلى العربية فيأتي بأحسن الشعر مع محافظة على المعنى والمبنى .

خصائصه الادبية

لبديع الزمان شعرٌ وله رسائلُ ومقاماتٌ .

(١) شعره = شاعرية بديع الزمان فَيَّاضة على البديهة ، مقتدرة على اقتسار

(١) وفيات (القاهرة ١٢٧٥) ١ : ٥٥ .
(٢) راجع تطور الأساليب النثرية ٣٩١ .

الشعر في كل غرض وعلى كل شكل ، ولكن يظهر عليها التكلف أحياناً وإن كان في بعضها قليل التصنيع ؛ وتنقصه الطلاوة ويعوزه الماء . على أن بعض شعره في المقامات جيد — إذا كانت القصيدة التي نسبها لبشر بن عوانة : « أفاطِمَ ، لو شَهِدتِ ببَطْنِ خَبْتٍ » له .

(٢) رسائله = رسائل بديع الزمان موضوعات أدبية — إلا ما ندر — واغراضه فيها متنوعة : فيها مدح وفيها تهنئة وفيها وعظ وتوصية وفيها سؤال وشكوى ، وفيها كل ما يتفق أن يكتب المرء إلى أهله وإخوانه وأولياء أمره . وكذلك فيها أدب ولغة وتاريخ وفقه ونقد وما إلى ذلك . وقد تطول الرسالة حتى تبلغ صفحات وتقصر حتى لا تتجاوز أسطراً .

يبدأ بديع الزمان رسالته بتحميدة [1] تطول ، أو تقصر . ولكن بعض رسائله مبتور أي لا تحميدَ فيه مطلقاً ؛ ولعل تلك قطعٌ من رسائلَ لا رسائلُ تامة . ويقدم بديع الزمان كل رسالة طويلة بمقدمة لطيفة قبل الوصول إلى الغرض الأساسي منها . وكذلك يعمد بديع الزمان في رسائله إلى شيء من المحسنات المعنوية واللفظية من غير إغراق ؛ أما السجع فيها فكثير ؛ وأما الألفاظ الغريبة في تلك الرسائل فقليلة جداً . ثم هو يرصع رسائله بالآيات الكريمة والأحاديث وبالشعر والاشارات التاريخية .

(٣) مقاماته = يذكر بديع الزمان أنه أملى أربعمائة مقامة . ولكنّ في هذا العدد مبالغةً فاحشة . إلا أن مقاماته على ما وصلتنا تبلغ واحدةً وخمسين مقامة وقيل بل اثنتين وخمسين [2] ، ولعلها كلُّ ما كتب . وأرى أن هذا العدد لم يُتَّخَذ اعتباطاً ، فلعل بديع الزمان لما سمى هذا الفن « المقامات » — وكانت كل مقامة

---

(١) النثر الفني ١ : ١٩٨ .

(٢) Vgl. GAL, Suppl I 151

« مجلساً » واحداً — جعل عدد المجالس بعدد أسابيع السنة الهجرية . ولعل الخلاف في العدد بين الخمسين والواحد والخمسين والاثنين والخمسين راجع إلى ذلك ، فان السنة الهجرية خمسون أسبوعاً ونحو أربعة أيام .

ولقد سبق أن اعترضت هذه المشكلة طريق الباحثين في رسائل « إخوان الصفا » ، فان هذه الرسائل تعتبر أيضاً مرة خمسين رسالة ومرة واحدة وخمسين ومرة اثنتين وخمسين [١] .

ولقد مدح ابن خلكان هذه المقامات لما ذكر بديع الزمان فقال [٢] :

« صاحب الرسائل الرائقة والمقامات الفائقة ؛ وعلى منواله نسج الحريري مقاماته وحذا حذوه واقتفى أثره واعترف في خطبته (مقدمته) بفضله وانه « هو الذي أرشده إلى سلوك ذلك المنهج » .

وأما خصائص بديع الزمان في مقاماته خاصة فهي التي تلي :

أ — اتخذ بديع الزمان راوية لمقاماته رجلاً اسمه عيسى بن هشام وهو « مجهول لا يُعرَف » في رأي الحريري [٣] . أما الاستاذ أنيس المقدسي فيذكر أن أحد أساتذة بديع الزمان كان عيسى بن هشام الاخباري [٤] .

أما المكدي (بطل المقامات) فهو أبو الفتح الاسكندري وهو « مجهول لا يُعرف » كما ذكرى الحريري أيضاً . ولكن مهما كان من الأمر « فالاسكندري » هنا نسبة إلى الاسكندرية في جنوبي العراق لا في مصر .

ب — وبديع الزمان « جيد الفطرة » فهو يعتمد في اختيار العقدة مقاماته على الابتكار وعلى قوة القصة .

---

(١) راجع اخوان الصفا للدكتور عمر فروخ ، ص ٢٣ وما بعدها .
(٢) وفيات ١ : ٥٤ .
(٣) مقدمة مقامات الحريري . (٤) تطور الأساليب النثرية ٣٨٤ .

ج — « والبحوث كثيرة » في مقامات بديع الزمان منها الجدي الذي يَعْرِض لمشاكل المجتمع ولمسائل الفقه والأدب ؛ ومنها الهزلي الذي لا يرمي إلى أبعدَ من تسلية القارىء وإطرابه .

د — و « الوصف » في مقامات بديع الزمان مَيِّزَةٌ بارزة ، فهو مقتدر في الوصف الحسي والتحليل النفسي أيضاً يصيب الصفات العامة ويجيد تصوير الدقائق .

ه . ويغلب على مقامات بديع الزمان عنصر « الفكاهة » . ومع ان النكتة ليست دائماً بارعة فان في المقامات ناحية كبرى من الطرافة المبنية على الدعابة والظرف والاضحاك .

و — وكذلك يحسن بديع الزمان « التهكم » في لفظ بري. وفي لفظ مُقذع ، ويحسن الهجاء الاجتماعي وتبيان مساوىء المجتمع . على انه لا يعمد إلى إصلاح هذه المساوىء بنُصح أو رَدْع ، وإنما غايته التهكم على أصحابها وإطراب الآخرين بتصويرها واستعراضها .

وأسلوب بديع الزمان في مقاماته « قليل التكلف » على الرغم من بروز عنصر الصناعة المعنوية واللفظية في المقامات كلها : ان الموضوعات التي اختارها بديع الزمان بسيطة فطرية في بعض الأحيان : رجل يكتب حرزاً لمسافرين في مركب ؛ رجل يذم الدينار (المال) مرة ويمدحه أخرى ؛ حضري يحتال على قروي فيأكل على حسابه . . .

وكذلك السجع ليس كثيراً ولا متكلفاً بل هو قليل في بعض المواضع ؛ والموازنة والازدواج لم يتطلبها بديع الزمان تطلباً شديداً .

المختار من

رسائل بديع الزمان ومقاماته

أ – رسائله :

١ – وكتب إلى أبي بكرٍ الخوارزمي :

أَنا لِقُرب الاستاذ – أَطالَ الله بقاءه (كَما طَرِبَ النَّشوانُ مالت بِهِ الخَمْرُ) ؛ ومِنَ ٱلِارتياح للقائه (كَما ٱنتَفَضَ العُصْفورُ بَلَّلَهُ ٱلقَطْرُ) ؛ وَمِنَ ٱلِامتزاج بوَلائه (كَما ٱلتَقَتِ الصَهْباء وَٱلبارِدُ ٱلعَذْبُ) ؛ وَمِنَ ٱلِابتهاج بمرآه (كَما ٱهتَزَّ تَحت البارِحِ [1] ٱلغُصْنُ ٱلرَّطْبُ) . فكيفَ نشاطُ الاستاذ لصديقٍ طوى إليه [2] ما بين قَصَبَتَيِ العراق وخُراسان ، بل ما بين عَتَبَتَيْ نَيسابورَ وَجُرجان ؟ وكيف اهتزازه لضيف في بُرْدَة [3] جَمّال . وجِلدة خَمّال :

رَثِّ الشَمائِلِ [4] مُنهَجِ ٱلأَثوابِ (بَكَرَتْ عَلَيْهِ مُغيرَةُ ٱلأَعرابِ [5]) .

وَهُوَ – أَيَّدَهُ الله – ولي إنعامه ، بإنفاذ غُلامه [6] إلى مُستقرّي ، لِأُفضِيَ إليه بِسِرّي ؛ إن شاء الله تعالى .

---

(١) البارح : الريح الحارة في الصيف (القاموس)

(٢) طوى الارض : قطعها ، سافر .

(٣) البردة : الثوب ؛ جمال : راعي الجمال . الخمال : الفقير (كناية عن رثاثة الثياب والفقر) .

(٤) الشمائل جمع شملة : ثوب يلف على البدن . منهج (بالبناء للمجهول) : متهرئ .

(٥) بكرت ..... :

غدا عليه قطاع الطريق من البدو فسلبوه ما كان يحمله من مال ومتاع . وهذا الشطر مطلع قصيدة للسري الرفاء (بتشديد الياء والفاء) .

(٦) خادمه .

٢ـ وكتب إلى ابن أخته :

كتابي ، وقد ورد كتابُك بما ضَمَّنْتَه من تَظاهُر [١] نِعَمِ الله عليك ، وعلى أبويك . فسكنتُ إلي ذلك ، من حالك [٢] ؛ وسألتُ الله إبقاءك ، وأن يَرْزُقَني لِقاءك [٣] . وذكرتَ مُصابَك بأخيك ، فكأنّما فَتَّتَ عَضُدي وطعنت في كَبِدي [٤] . فقد كنت مُعتضداً بمكانه ، والقَدَر جارٍ لشانِه [٥] . وكذا المرء يدبّر ، والقضاء يُدَمِّر ؛ والآمالُ تَنقَسِم ، والآجالُ تبتسم . والله يَجعَلُه فَرَطاً [٦] ولا يُرِيني فيك سوءاً ، أبداً وأنتَ — أَيَّدَكَ اللهُ — وارثُ عُمْرِه ، وسَدادُ ثَغْرِه [٧] ؛ ونِعْمَ العِوَضُ بَقاؤك :

إن الأشاءَ إذا أصابَ مُشَذَّباً منه أغلَّ ذُرًى وأثَّ أسافلا [٨] !

وأبوك سيدي — أَيَّدَهُ اللهُ وألهمه الجميلَ ، وهو الصبر ، وآتاه الجزيل ، وهو الأجر ؛ وامتعه بك طويلًا ، فما سُوِّتَ بديلًا . أنتَ ولدي ما ذُمْتَ والعلمُ شأنُك ، والمدرسة مكانُك ، والدفتر نديمك . وإن قَصَّرتَ ، ولا إخالُك ، فغيري خالُك ؛ والسلام .

---

(١) تظاهر : توالي . (٢) فسكنت ..... : سررت ، اطمأننت .

(٣) ارجو ان اراك قريباً . (٤) فتت عضدي : كسرت عظم ساعدي ..... كناية عن الالم والمصيبة النازلة .

(٥) معتضداً بمكانه : مستعينا به ، معتمداً عليه . والقدر جار لشانه : وانا غافل عما يخبئه لي.

(٦) الفرط : المتقدم . جعل الله موته لنا ثوابا عند الله .

(٧) انت سداد ثغره : تقوم مقامه .

(٨) الاشاء جمع اشاءة : النخلة الصغيرة . التشذيب : قطع الاغصان اليابسة او الزائدة . أغل ذرى : حمل (في اعلاه) حملا كثيرا . أث : كثر ، التف ، كثف — اذا شذبت الاشجار انبسطت اغصانها وكثر حملها.

٣ - وكتب إلى الشيخ أبي العباس الفضل بن أحمد الاسفرائيني ، وهو أول من استوزر للسلطان محمود بن سبكتكين فاتح الهند :

كتابي ، والثمرة - أدامَ اللهُ عِزَّ الشيخ الجليل - تَخْرُجُ من أكمامِها [١] ، فتكون مُرَّةً قبلَ تمامها ؛ ثم تصير مُزَّةً كثيراً من أيامها ؛ ثم تكون فِجَّةً عَفِصَةً [٢] . ثم لا يزال الليلُ والنهارُ يُنضِجانِها حتى تُصبِحَ رُطَباً جَنِيًّا [٣] ، وتُؤكَلَ حُلواً هَنِيًّا . وقد تَصَوَّرَني الشيخُ الجليلُ حجراً لا يُؤثِّرُ فيَّ الماءُ والنار ، ولا يُنضجني الليلُ والنهار . وللشباب نَزْقَةُ طَيْشٍ ثم يَرْبَعون ، إذا جاءَ الأربعون ؛ ويَنْزِعون وإن كانوا لا يُوزَعون [٤] . وقد نظرتُ في المِرآةِ فرأيتُ الشيبَ يَتَلَهَّبُ وينهَبُ ، والشبابَ يتأهَّب ويذهب ؛ وما أُسرِجَ هذا الأَشْهَبَ إلا لِسيرٍ [٥] ؛ وأسأل الله خاتمةَ خير .

وأنا أرجو أن يكونَ ما نَسَبَني إليه وَلِيُّ النعمة - أدامَ اللهُ عُلُوَّهُ - من الظُّلم والعُدوان مُطايَبَةً ومُزاحاً . فإن كان اعتقاداً فَلِأُمِّيَ الويلُ ، وسالَ بِيَ السَّيْلُ [٦] . فأما الخَراجُ وتوابعه فواللهِ ما أُحوِجُ [٧] عاملاً إلى اقتضائه ، إنما

---

(١) الكم (بالضم) الاوراق الخضر التي تضم الزهرة قبل ان تتفتح .

(٢) المز : ما فيه طعم حموضة وحلاوة ، الفج : النيء ؛ العفص : المر ، القابض

(٣) الرطب : التمر . الجني : المقطوف حديثا .

(٤) نزقة : خفة . ربع : هدأ ، سكن . الاربعون : اربعون سنة . نزع : رجع عن غيه . لا يوزعون : لا يتزجرون عن المعاصي (في ايام الشباب)

(٥) يتلهب : يكثر ؛ ينهب : يسرع . الاشهب : الحصان الابيض كني به عن شيبه (يقول اسرج حصاني للسير عن هذه الدنيا) .

(٦) مطايبة : مداعبة . لامي الويل : ثكلتني امي ، امت . سال بي السيل : حملني السيل معه .

(٧) الخراج : ضريبة على الاراضي . أحوج في الاصل للغائب والصواب للمتكلم . العامل : الموظف الذي يجمع الضرائب . اقتضائه : طلبه مني — ادفعه قبل ان يطلبه العامل مني .

الحديث في جُزافٍ يُطلَب ، ومُحال يُكتب . فأما حقوقُ الديوان [١] أصلاً وفرعاً فلا يَدَّعي العُمَّالُ عليَّ باقياً إلا غَرِمْتُ للدرهمِ ديناراً ؛ أمجنون أنا ؟ وأما الشُّرَكاء فهم يُفدّونني بالأُمهات والآباء ، وقد سمع الشيخ الجليل كلامهم ، والذكرى تنفع المؤمنين .

ومما أُطرِفُ [٢] به المجلسَ العالِيَ — زاده الله شرفاً — أنه كان في جيرتنا رجُل يُكنَى أبا الهَوْل ، كُنّا نُسمّيه أُسطوانةَ [٣] المَسجدِ لِكثرة صلاته ، وكان له عمٌّ مُوسِرٌ لا عَقِبَ له ، فرُزِقَ ولداً على كِبَرِ السن . فحمل أبا الهولِ فَرْطُ غمه — أن زوى [٤] الله عنه ميراثَ عمه — على تَرْكِ الصلاةِ أصلاً : فكان لا يُؤَدِّي فرضاً ولا نَفلاً [٥] ، ولا يَرُدُّ سلاماً ولا يعمل في الخير عملاً ، ولا يَغسِلُ أسته [٦] ، مثلاً . وقد وَجدتُ لأبي الهول عِدْلاً [٧] وهو ابو فلان ؛ كان فيما مضى يَعتِق في كل شهرٍ عبداً ، ويُصَلِّي بالليل وِرداً [٨] ؛ ويَتَّخِذُ مَصانعَ ورُبُطاً [٩] . فرَجَعَ من الحضرة [١٠] وقد سلخهُ اللهُ من كل خير ، وضربه في قالَبِ عَيْر [١١] . فهو الآنَ لا يشهَدُ جامعاً ولا جُمعة ، ولا يُصَلِّي في الظاهر رَكْعة ؛ ولا يعطي فقيراً حَبَّة ، ولا يُرزَق طِفلٌ منه مَحَبَّة . وَقدِ اتخذ نُقَباء وأعواناً ، وارتبط

---

(١) الديوان : بيت المال . حقوق الديوان : الضرائب .

(٢) أطرفه : احدثه بحديث جديد لذيذ . المجلس العالي : مجلس السلطان .

(٣) الاسطوانة : العمود (٤) زوى : نحى ، امال ، أبعد .

(٥) الفرض من الصلاة ما يجب اداؤه . النفل : ما يتطوع الانسان به.

(٦) لايغسل استه : لا يتطهر من نجاسة (٧) عدلا : نداً ، مثيلاً .

(٨) لا يصلي ورداً : لا يقرأ شيئا من الاوراد (الورد : دعاء او كلام صالح في الله ورسوله يقرأه المؤمن في الليل عادة) .

(٩) المصنع : بناء كالحصن . الربط جمع رباط : مكان على تخوم البلاد الاسلامية ينزل فيه بعض الاتقياء للعبادة ولدفع خطر العدو.

(١٠) العاصمة ، وهي هنا : غزنة عاصمة السلطان محمود . (١١) حمار .

رَجّالة وفُرساناً . وقد ملأ الرُّستاق والبلد أجمالاً [١] ، وما سُجِنَ أحدٌ قبلي على سِعاية . ولولا أمرٌ خصّني لرأيتُ حقّاً لله ان انهض إلى المجلس العالي لتصوير حاله ، وقد طَوَيتُ هذا الكتابَ على ما عاملني به . وإذا كانت هذه حالي وأنا أمشي بالنهار على الماء ، وأعرُجُ بالليل إلى السماء [٢] — عَلِمَ الشَّيخُ الجليل حالَ العامّة . وإذا أنعم بالنظر في الرُّقعة التي طويتُ كِتابيَ هذا عليها وفي جواب القاضي في آخرها وعلى ظهرها علم صدق ما يقوله العبد . وللشيخ الجليلِ في تأهيل العبد للجواب وزَجر هذا الطويلِ [٣] عما يتعاطاه رايةُ العالي ، ان شاء الله .

٤ — وكتب إلى أبيه :

إنَّ الإبلَ ، على غِلَظِ اكبادها ، لَتَحِنُّ إلى بلادها ؛ وإن الطيرَ لَتَقطَعُ عَرضَ البحر إلى مَظانِّها [٤] . وبلغني أن ذا اليمينينِ طاهرَ بنَ الحُسينِ ، لما وَلِيَ مِصرَ [٥] وافاها مضروبةً قِبابُها [٦] ، مفروشةً أرضُها ، ومُزخرَفةً جُدرانُها ؛ والناسُ رُكباناً ورِجالاً ؛ والنِثارُ يميناً وشِمالاً . فأطرق لا ينطِقُ حرفاً ، ولا يَرفَعُ طَرفاً ، ولا

---

(١) النقباء الرؤساء ، رؤساء لاعوانه (على الشر وظلم الناس) . الرجالة : المشاة . الرستاق : المزرعة . الجعل (بضم فسكون) : مبلغ يفرضه الاشرار من ذوي النفوذ على العامة، خوة .

(٢) عرج : صعد ، امشي ..... السماء : كناية عن التقوى والزهد في الدنيا .

(٣) العبد : الخاضع (بديع الزمان) . تأهيل : استحقاق . الطويل : المستطيل على الناس ، المعتدي عليهم.

(٤) المظان جمع مظنة (بفتح فكسر فنون مشددة) : مكان ، موضع .

(٥) طاهر بن الحسين قائد المأمون حاصر بغداد وقتل الأمين . سمي ذا اليمينين لأنه ضرب شخصاً بيده اليسرى فقده نصفين ، فقامت يساره له مقام يمينه . لما ولي مصر (؟) .

(٦) هش له : ابتسم ، فرح به . النظارة : الحضور (المتفرجون) . نشأ طاهر في بوشنج ولذلك كان يحب ان تراه عجائز بوشنج لا فتيات مصر (لعله يقصد بغداد) . القباب جمع قبة (بضم القاف وتشديد الباء) : خيمة كبيرة من جلد . الركبان : الفرسان . الرجال : المشاة . النثار : ماينثر على الناس من دراهم وحبوب أو سكر . أطرق : خفض رأسه . الطرف : العين ، البصر .

يهشُّ إلى أحدٍ . فقيل له في ذلك فقال : ما أصنع بهذا وليس في النظّارة عجائزُ بوشنجَ * ! والعَجَبُ من حاضرِ أنطاكيةَ ، صاحب ياسين ، وقد كُذِّبَ وعُذِّبَ وقُتِلَ وجُرَّ برِجله ، وأُهلِكَ قومُه من أجله ؛ قيل أدخِلِ الجنّة (١) ، قال : « يا ليت قومي يعلمون بما غفرَ لي ربّي وجعلني من المُكرَمين (٢) » . فكأنه تمنّى الجنّةَ بلقيا قومهِ على سوءِ جوارهم ، وقُبحِ آثارهم . ثم هذا أخو كندة يزعُمُ ان لا ينعَمَ من كان اقرب عهده ثلاثين شهراً أو ثلاثة احوال (٣) ، فما ظنه بي لإحدى عشرةَ سَنَةً ؟ على ان لي برسول الله اسوةً حَسَنَةً (٤) ، وعسى اللهُ أنْ يأتيني بكُمْ جميعاً (٥) ، أو يأتيكُمْ بي سريعاً ؛ ان شاء الله تعالى .

(*) راجع الشرح على الصفحة السابقة .

(١) حاضر انطاكية : حبيب النجار بن اسرائيل قتله قومه رفساً بأرجلهم فأدخله الله الجنة وأهلك قومه . وقد تمنى حبيب المذكور ان لو يراه قومه ليطمعوا في ما ناله هو فيتوبوا الى الله . لقد أحب الخير لقومه مع ما عاملوه به من السوء .

(٢) القرآن الكريم ، سورة يس (٣٦ : ٢٦ وما بعدها) .

(٣) أخو كندة : امرؤ القيس الشاعر الجاهلي . وبديع الزمان يشير هنا الى قول امرىء القيس :

ألا عم صباحاً ، أيها الطلل البالي ؛ وهل يعمن من كان في العصر الخالي ؟
وهل يعمن من كان أقرب عهده ثلاثين شهراً أو ثلاثة أحوال ؟

يقول بديع الزمان : قال امرؤ القيس إن الانسان لا ينعم بعد ان يمر عليه ثلاثة أعوام (على مفارقة الأحبة) فكيف بي ، وقد مر علي احدى عشرة سنة ؟

(٤) اقتباس من قوله تعالى : « لقد كان لكم في رسول الله اسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ... » ٣٣ (سورة الاحزاب) : ٢١ .

(٥) اقتباس من قوله تعالى : « عسى الله أن يأتيني بهم جميعاً ... » ١٢ (سورة يوسف) : ٨٣ .

ب - مقاماته :

المقامة الخرزية

حدَّثنا عيسى بنُ هِشامٍ ، قال : لمـا بلَغتْ بِيَ الغُربةُ بابَ الابواب [١] ، ورضيتُ من الغنيمة بالاياب [٢] ؛ ودونه من البحر وَثابٌ بغاربه ، عسَّاف براكبه ؛ أستَخِرُ اللهَ في القُفول ، وَقعَدتُ من الفُلكِ بمَثابة الهُلك . ولما مَلَكنا البحرُ وَجُنَّ علينا الليلُ غَشِيَتْنا سحابةٌ تَمُدُّ من الامطار حِبالاً ، وتحوذ [٣] من الغيم جبالاً ، بريح تُرسِلُ الأمواجَ أزواجاً والأمطارَ أفواجاً . وَبَقِينا في يدِ الحَينِ ، بين البحرَيْنِ لا نَملِكُ عُدَّةً غيرَ الدعاء ، ولا حيلةً إلَّا البُكاء ، وَلا عِصْمَةً إلا الرجاء [٤] . وطويناها ليلة نابغية [٥] . وأصبحنا نَتَباكى وَنَتَشاكى . وفينا رَجُلٌ لا يَخْضَلُّ جَفْنُهُ وَلا تبتلُّ عينه ، رخيُّ [٦] الصدر منشرحه ، نشيط القلب فرحه .

فعجبنا واللهِ كل العَجَب ، وقلنا له : ما الذي أمنك من العَطَب؟ فقال :

---

(١) باب الأبواب : ناحية بشمالي فارس .

(٢) رضيت من الغنيمة بالاياب : رضيت أن أرجع من سفري بلا ربح . في هذه الجملة تضمين من قول امرىء القيس :

وقد طوفت في الآفاق حتى رضيت من الغنيمة بالاياب

(٣) دونه : دون باب الأبواب، بين باب الأبواب والعراق. وثاب بغاربه : ثائر بأمواجه يثب الى ظهور المراكب . عساف براكبه : يدفع راكبه يميناً وشمالا على غير هدى وبشدة .

(٤) استخار الله : اتجه بقلبه الى الله ليلهمه ما يعمل ، أو رجع معتمداً على الله في توفيقه في عودته . القفول : الرجوع . الفلك : السفينة . بمثابة الهلك : كأني هالك ، لا أرجو النجاة . ملكنا البحر : صرنا على ظهره لا نستطيع الرجوع الى البر لو أردنا . تحوذ : تدفع ، تسوق(؟)

(٥) الحين : الموت . البحران : بحر من فوقنا هو المطر ، وبحر من تحتنا هو البحر . العدة: السلاح . العصمة : الملجأ . ليلة نابغية : ليلة طويلة سوداء شاقة ، نسبة الي قول النابغة الذبياني :

كليني لهم يا اميمة ناصب وليل اقاسيه بطيء الكواكب .

(٦) يخضل : يندى ، يبتل . رخي الصدر : واسع الصدر ، مطمئن.

حرزٌ لا يغرق صاحبه ، ولو شئت أن أمنحَ كل واحد منكم حِرزاً لفعلت . فكُلٌ رَغِبَ إليه ، وَألحَّ في المسألة عليه . فقال : لن أفعل ذلك حتى يعطيَني كل واحد منكم ديناراً الآن ، وَيَعِدُني ديناراً إذا سَلِم .

قال عيسى بن هشام : فنقدناه ما طلب ووعدناه ما خَطَب (٧) . وَآبت يده إلى جيبه فأخرج منها قِطعة دِيباج فيها حُقَّةُ عاج ، قد ضُمِّن صدرُها رِقاعاً وَحذَف كلَّ واحدٍ منا بواحدةٍ منها .

فلما سَلِمَتِ السفينةُ وَأَحلَّتنا (٨) المدينةَ اقتضى الناس ما وعدوه فنقدوه (٩) . وانتهى الأمرُ إليَّ ، فقال دَعُوه ! فقلت : لك ذلك على ان تعلمني سِرَّ حالك . قال : أنا من بلاد الاسكندرية . فقلت : كيف نَصَرَكَ الصبرُ وَخذَلنا (١٠) ؟ فأنشأ يقول :

ويكَ ، لولا الصبرُ ما كنـ ـتُ ملأتُ الكيسَ تِبرا (١١) .
ان ينالَ المجدَ من ضاق ـ ق بما يغشاه صبرا (١٢) .
ثم ما أعقبني السا ـعةَ ما أعطيتُ ضَرّا (١٣) .
بل به أشتدّ أزرا وبه أجبرُ كسرا (١٤) .
وَلَوَ أنّى اليومَ في الغَرْ ـقى لما كُلِّفتُ عُذرا (١٥) .

---

(٧) خطب : طلب . آب : رجع . الجيب : شق القميص عند العنق . ديباج : حرير فاخر . حقة : وعاء . عاج : سن الفيل . حذف : رمى .
(٨) احلتنا المدينة : انزلتنا (سالمين) الى المدينة . اقتضى : طلب منهم تأدية الدين .
(٩) نقدوه : دفعوه له عيناً (ذهباً) .
(١٠) خذله الصبر : فارقه .
(١١) ويك : ويل لك . التبر : الذهب .
(١٢) غشيه : أتى عليه .
(١٣) ما حرف نفي . أعقبني : أثر في ، حصل لي . الضر (بالفتح والضم) : الضرر .
(١٤) الازر : الظهر — ازداد قوة .
(١٥) لو غرقنا : لما طالبني أحد بشيء ، ولا بأن اعتذر .

المقامة الدينارية [1]

حدَّثنا عيسى بنُ هِشامٍ قال : اتَّفق لي نَذْرٌ نَذَرْتُه في دينارٍ أتَصَدَّقُ به على أشحذِ رجلٍ ببغداد . وسألتُ عنه فَدُلِلْتُ على أبي الفَتْحِ الإسْكندريّ فمضَيْتُ إليه ، لِأتَصَدَّقَ به عليه . فوَجدْتُه في رُفقة ، قدِ اجتمعت عليه في حَلْقة . فقلتُ : يا بني ساسانَ ، أيّكم أعرفُ بسِلعته [2] وأشحذ في صَنعته فأُعطيَهُ هذا الدينار ؟ فقال الإسكندريُّ أنَا . قال آخرُ مِنَ الجماعةِ : لا ، بلْ أنَا . ثم تناقشا وتهارشا [3] حتى قلتُ : ليَشتُمْ كلُّ منكما صاحبَه . فَمَنْ غلَب سلَب . ومن عزّ بزّ

فقال الإسكندريُّ : يا بَرْدَ العجوز ، يا كُرْبَةَ تَمُّوز ، يا وَسَخَ الكُوز . يا درْهماً لا يَجوز . يا حديثَ المُغَنِّينَ . . . [5] يا سَنَةَ البُوس ، يا كَوْكَبَ النَّحوس . يا وَطْأَ الكابوس . يا تُخْمَةَ الرؤوس . يا أُمَّ حُبَيْن [6] . يا رَمَد العَيْن . يا غَداةَ البَيْن . يا فِراقَ المُحِبَّيْن . يا ساعَةَ الحَيْن . يا مَقْتَلَ الحُسَيْن . يا ثِقَلَ الدَّيْن

---

(١) راجع مقامات أبي الفضل بديع الزمان الهمذاني وشرحها للعلامة الفاضل الشيخ محمد عبده (بيروت ، المطبعة الكاثوليكية ، ١٨٨٩) ص ٢١٦ ـ ٢٢٢ . وقد حذف من هذه المقامة كلمات يسيرة فيها إقذاع وبذاءة .

(٢) السلعة : المتاع المعد للتجارة ، البضاعة .

(٣) تهارشت الكلاب : تواثب بعضها على بعض .

(٤) من عز بز مثل (فرائد اللآلي ٢ : ٢٦٧) . عز : قوي . بز : سلب .

(٥) برد العجوز يشتد عادة في أيام المستقرضات : آخر شباط وأوائل آذار . كربة تموز : اشتداد الحر فيه . الكوز : الوعاء الذي يشرب فيه ؛ والوسخ في وعاء الشرب مستقذر . درهم لا يجوز : زائف . اذا قطع المغني غناءه وجعل يتكلم تضايق الناس .

(٦) سنة البؤس : الجدب . وطأ ووطأة : ثقل . الكابوس : حلم مزعج مؤلم أحياناً . تخمة الرؤوس : الصداع الناشىء من التخمة . (تتمة الشرح على الصفحة التالية)

يا سِمَةَ الشَّين[٧] . يا بَريدَ الشُّومِ[٨] . يا طَريدَ اللُّوم . يا ثَريدَ الثُّوم . يا بادِيَةَ الزَّقُّوم . يا مَنْعَ الماعونِ . يا سَنَةَ المطاعون . يا بَغْيَ العبيدِ[٩] . يا آيةَ الوَعيد . يا كَلامَ المُعيد . يا أقْبَحَ مِن حَتَّى ، في مواضعَ شَتَّى[١٠] . يادودةَ الكَنيف . يا فَرْوَةً في المَصيف[١١] . يا تَنَحْنُحَ المُضيف إذا كُسِرَ الرَّغيف . يا جُشاء المخمور . يا نَكْهة الصقور . يا وَتِد الدُّور . يا خُذْروفة القُدور . يا أرْبِعاءَ لا تدور . يا طَمعَ المقمور[١٢] . يا ضَجَرَ اللِّسان . يا بَوْل الخِصْيان[١٣] . يا مُؤاكلة العُميان . يا شفاعة

---

(٧) أم حبين : دويبة كريهة المنظر . غداة البين : اليوم الأول بعد افتراق المحبين . الحين : الموت . مقتل الحسين : اشارة الى مأساة كربلاء . سمة الشين : علامة العار ، اشتهار العار عن انسان ما .

(٨) بريد الشؤم : الخبر المحزن . طريد اللؤم : المطرود للؤمه . الثريد : طعام من خبز مهشوم ... الزقوم : شجر خبيث ، يرمز به الى طعام أهل جهنم . جاء في سورة الصافات : « أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم ، إنا جعلناها فتنة للظالمين . انها شجرة تخرج في أصل الجحيم . طلعها كأنه رؤوس الشياطين ... (٣٧ : ٦٢ وما بعدها) ؛ راجع ايضاً سورة الدخان (٤٤ ، ٤٣ وما بعدها) ، وسورة الواقعة (٥٦ : ٥١ وما بعدها) . الماعون : الزكاة ، عمل الخير ؛ راجع سورة الماعون (١٠٧ كلها) .

(٩) العبد اذا ظفر بالقوة ظلم الناس . آية الوعيد : اشارة الى آيات كثار في القرآن الكريم . راجع مثلا سورة ق : « ونفخ في الصور فذلك يوم الوعيد ... ألقيا في جهنم كل جبار عنيد . مناع للخير معتد مريب ، الذي جعل مع الله الها آخر ، فألقياه في العذاب الشديد » (٥٠ : ٢٠ وما بعدها) الخ الخ . كلام المعيد : الذي يعيد الكلام يمله الناس .

(١٠) « حتى » تكون حرف جر وحرف عطف ؛ ويأتي ما بعدها مرفوعاً أو منصوباً أو مجروراً في مسائل مختلفة . وقد قال الفراء ، وهو نحوي مشهور : أموت وفي نفسي بقية من حتى ؛ أي انه لم يستطع جمع كل مسائلها .

(١١) الكنيف : بيت الخلاء . المصيف هنا : الصيف . تنحنح المضيف : كناية عن البخل .

(١٢) المخمور : السكران . تجشأ : أخرج ريحاً من حلقه . نكهة الصقور : رائحة فمها وهي كريهة . الوتد : يغرز في الأرض فيبقى ، كناية عن الهوان والذل . خذروفة القدر : لعلها حجر توضع عليه القدر ، كناية عن الاسوداد من الدخان الخ . اربعاء لا تدور : يوم نحس (آخر أربعاء من صفر ، أو من كل شهر) . المقمور : الخاسر في القمار ، وهو يطمع دائماً ان يربح .

(١٣) ضجر اللسان : يدفع الى الشتائم الخ .

العُريان . يا سَبْتَ الصِبيان . يا كتاب التعـازي . يا قَرارة المَخازي . يا بُخْلَ الأَهوازيّ . يا فُضول الرازيّ [١٤] . واللهِ لو وَضَعْتَ إحدى رِجْليك على أَرْوَند . والأُخرى على دُماند . وأخذت بيدك قَوْسَ قُزَحَ وَنَدَفْتَ الغيم فى جِبـاب الملائكة ما كنتَ إلَّا حَلَّاجاً [١٥] .

وقال الآخرُ : يا قَرَّاد القُرود . يا لُبودَ اليهود [١٦] . يا نَـكْهَةَ الأَسود . يا عدماً في وُجود . يا كلبـاً في الهِراش . يا قِرداً في الفراش . يا قَرْعِيَّة بَاش . يا أقلَّ من لاش . يا دُخـان النِفط . يا صِنانَ الإبط [١٧] . يا زَوالَ المُلك . يا هِلالَ الهُلك . يا أَخْبَثَ مِمَّنْ بَاءَ بِذُلِّ الطلاق ، وَمَنْعِ الصِداق [١٨] . يا وَحـلَ الطريق . ياماء على الريق . يا مُحَرِّكَ العَظْم . يا مُعَجِّلَ الهَضْم . يا قَلَحَ الأَسنان [١٩] .

---

(١٤) الاهواز : مقاطعة في جنوبي غربي فارس ، وأهلها بخلاء ! الرازي عالم من علمـاء الكلام والفقه ...

(١٥) أروند : جبل . دبناوند : جبل في شرقي فارس (والعامة تقول دماوند) . الحلاج : الذي يعمل في ندف القطن .

(١٦) القراد : الذي يدور بالقرود يلاعبها أمام الناس . لبود اليهود : كناية عن الثياب لقذرة .

(١٧) قرعية بماش : طعام يصنع من القرع وحب الماش (وهو كالعدس) : طعام رخيص غير لذيذ . لاش : لا شيء . النفط : البترول ، ودخانه كثيف ، وخصوصاً اذا كان غير مكرر . صنان : رائحة العرق .

(١٨) هلال الهلك : كناية عن الانذار بالهلاك . تطلق المرأة لسبب موجب وخصوصاً لرداءة السيرة والجنون المطبق الخ . وأحياناً يهلك صداق المرأة (المستحق لها من المال عند الطـلاق) وتسقط النفقة عليها عن الزوج في أحوال فصلها الفقهاء فليرجع الى كتب الفقه . — المقصود : امرأة طلقت لسوء سيرتها وبلا صداق .

(١٩) محرك العظم : حمى الربع (الملاريا) لأنها تهز ببردها جسد الانسان حتى عظمه . معجل الهضم ؟ .... قلح : وسخ اصفر وأخضر يعلو الاسنان .

يا وَسَخَ الآذان . يا أجرَّ من قَلْس . يا أقلَّ مِنْ فَلْس . يا أفضَحَ من عَبْرَة . يا أبغَى من إبْرَة[٢٠] . يا مَهَبَّ الخُفّ . يا مَدْرَجَة الأكُفّ . يا كَلِمَةَ لَيْت . يا وَكْفَ البيت . يا كَيْتَ وَكَيْتَ[٢١] . واللهِ لو وضعتَ اسْتَكَ على النجوم ، وَدَلَيْتَ رِجْلك في التُّخوم[٢٢] ، وَاتَّخَذْتَ الشِّعْرى حَفًّا ، وَالثُّرَيَّا رَفًّا ؛ وجعلتَ السماء مِنْوالاً ، وَحِكْتَ الهواء سِرْبالاً ، فَسَدَّيْتَهُ بالنَّسْر الطائر ، وَأَلْحَمْتَهُ بالفَلَكِ الدائر ، ما كنتَ إلا حائكاً .[٢٣] .

قال عيسى بنُ هِشامٍ : فواللهِ ما عَلِمْتُ أيَّ الرجلين أُؤْثِرُ ؛ وما منهما إلَّا بديعُ الكلام ، عجيبُ المَقام ، أَلَدُّ الخِصام[٢٤] . فتركتُهما والدينارُ مُشاعٌ بينهما ، وَانْصَرَفْتُ وما أدري ما صَنَعَ الدهرُ بهما .

---

(٢٠) القلس : الحبل الضخم . المقصود ؟ الفلس : قطعة صغيرة من العملة . العبرة : الدمعة ؛ اذا كتم الانسان ذله أو ضعفه فان بكاءه يفضح ذلك . أبغى من ابرة : لأن الابرة يكون دائماً في ثقبها خيط ...

(٢١) مهب الخف : ريح الحذاء (من الداخل) . مدرجة الأكف : حيث تنزل الأكف بالصفع . وكف البيت : قطر الماء من سقفه . كيت وكيت : كناية عن الأقوال التي يستحيى من ذكرها .

(٢٢) لو وضعت استك على النجوم : لو جلست فوق النجوم . دليت رجليك في التخوم : مددت رجليك الى اطراف الأرض .

(٢٣) الشعرى : مجموعة نجوم . الحف : المنسج ، آلة ينسج عليها . الثريا مجموعة نجوم . الرف : الثوب الناعم ، الخيوط . المنوال : المثال والنموذج . السربال : الثوب ، اللباس . السدى (بضم السين) الخيوط التي تمد عند الحياكة طولا . اللحمة (بضم اللام) الخيوط الممدودة عرضاً . النسر الطائر : مجموعة نجوم . الفلك : المدار ، خط وهمي يتبعه الكوكب في دورانه حول الشمس مثلا . الفلك الدائر : الفلك المحيط بالعالم .

(٢٤) آثر : فضل . ألد الخصام : شديد العداوة (راجع سورة البقرة — ٢ : ٢٠٤ وسورة مريم — ١٩ : ٩٧) .

المقامة المضيرية

حدّثنا عيسى بنُ هِشامٍ ، قال : كنتُ بالبصرةِ ، ومعي أبو الفتح الاسكندريُّ ، رجلُ الفصاحةِ يدعوها فتُجيبه ، والبلاغةِ يأمرها فتطيعه . وَحَضَرْنا معه دعوةَ بعضِ التُّجّار ، فَتُدِّمَتْ إلينا مَضِيرَةٌ تُثني على الحضارة ، وتترجرج في الغضارة ، وَتُؤذِن بالسلامة ، وَتَشهَدُ لمعاوِيَةَ ، رحمه الله ، بالإمامة [1] ؛ في قَصْعة يَزِلُّ عنها الطَّرْفُ ، ويموج فيها الظَّرْف [2] . فلما أخذتْ من الخِوان مكانَها ، ومن القلوب أوطانَها ، قام ابو الفتح الاسكندري يلعنُها وصاحبَها ، وَيَمْقُتُها وآكلَها ، ويَثْلُبها وطابخَها . وَظَنَنّاه يَمْزَحُ ، فإذا الأمر بالضِدّ ، وإذا المُزاحُ عَيْنُ الجِدّ . وَتَنَحّى عن الخِوان ، وترك مُساعدَةَ الإخوان [3] . ورفعناها ؛ فارْتفعتْ معها القلوبُ ، وسافرت خَلْفَها العيون ، وَتَحَلّبَتْ لها الأفواهُ ، وَتَلَمَّظت لها الشفاهُ ، وَاتّقدت لها الأكباد ، ومضى في إثْرِها الفؤاد [4] . ولكنّا ساعدناه على هَجْرِها ، وسألناه عن أمرها ؛ فقال : قِصّتي معها أطولُ من مصيبتي فيها . ولو حدثتُكم بها ، لم آمَنِ المَقْتَ [5] وإضاعةَ الوقتِ . قلنا : هات . قال :

دعاني بعض التجار إلى مَضيرةٍ ، وأنا ببغدادَ ، ولَزِمني مُلازمةَ الغَريم ،

---

(١) المضيرة : لبن يطبخ بمرقة اللحم . تثني على الحضارة : فيها تأنق أهل الحضر . تترجرج : تهتز . الغضارة : سعة العيش ، الترف — متقنة الصنع . تؤذن بالسلامة : ان الاسراف منها لا يضر الآكل لطيبها وإتقان صنعها وفائدتها . تشهد لمعاوية بالامامة : لو طبخها معاوية لخصومه لشهدوا له بالامامة (بالخلافة) .

(٢) قصعة : وعاء . يزل عنه الطرف : يزلق عنها البصر لملاستها ونقاوتها .
يموج فيها الظرف : سكبت المضيرة فيها بذوق .

(٣) الخوان : منضدة الطعام . ثلب : ذم . تنحى : ابتعد . مساعدة الاخوان : موافقتهم .

(٤) تحلبت الافواه : سال ريقها شوقاً اليها . تلمظت الشفاه : تحركت كأنها تتذوق طعاماً .

(٥) الكره والبغض .

والكلبِ لِأَصحاب الرَّقيم [٦] ، إلى أن أَجبْته إليها ، وقمنا . فجعل طولَ الطريق يُثني على زوجته ، وَيُقَدِّيها بِمُهْجَتِه ؛ ويصف حِذقها في صَنعَتِها ، وَتَأَنُّقَها في طَبْخِها ، ويقول : يا مَولاي ، لو رأيتَها والخِرْقَةُ [٧] في وَسَطِها ، وَهِيَ تدورُ في الدور من التَّنُّور إلى القُدور ، ومن القدور إلى التَّنُّور ، تَنفُثُ بفيها النار ، وَتَدُقُّ بيَدَيها الأَبْزار ؛ ولو رأيت الدُّخان وقد غَبَّر في ذلك الوجهِ الجميل ، وأثَّر في ذلك الخَدِّ الصَّقيل ، لَرأيتَ مَنظَراً تَحار فيه العُيون ! وأنا أعشقُها لأنها تَعشقُني . ومن سَعادةِ المرء ان يُرزق المُساعدةَ من حَليلته . وان يُسْعَدَ بظعينته ، ولا سِيَّما اذا كانت من طينته . وَهِي ابنة عمي لَحًا : طينتها طينتي ، وأرومتها أرومتي [٨] . لكنها أوسع مني خُلقاً ، وأحسن خَلقاً .

وصدَّعني [٩] بصفات زوجته ، حتى انتهينا الى محلته . ثم قال : يا مولايَ ، ترى هذه المحلة ؟ هي أشرف مَحالِّ بغدادَ ، يتنافس الأَخيار في نزولها ، ويتغاير [١٠] الكِبارُ في حُلولها . ثم لا يسكنُها غيرُ التُّجَّار ؛ وإنما المَرء بالجار . وداري في السِّطَة من قِلادَتها ، والنُّقطة من دائرتها [١١] . كم تُقَدِّرُ ، يا مولايَ ، أنفق على كلِّ دارٍ منها ؟ قلت تخميناً ان لم تَعرِفه يقيناً . قلتُ : الكثيرُ ! فقال : يا سُبْحانَ

---

(٦) الغريم : الدائن . لزمني : لحق بي ولم يفارقني . الرقيم : لوح من بلاط منقوش . وأصحاب الكهف والرقيم بضعة اشخاص انامهم الله في كهف ثلاثمائة وتسع سنوات ثم ايقظهم . وكان معهم كلب طول هذه المدة (راجع سورة الكهف الآية التاسعة وما بعدها) .

(٧) الخرقة : قطعة نسيج تعقدها المرأة في وسطها في أثناء مكوثها في المطبخ لتدفع عن ثيابها رشاش الماء والطعام . تدور في الدور : تعتني بغرف البيت الكثيرة . التنور : موقد يخبز فيه العجين . القدور جمع قدر : وعاء لطبخ الطعام . الابزار : جمع بزر كالصنوبر وكبش القرنفل والكزبرة اليابسة وسواها مما يوضع في الطعام .

(٨) المساعدة : الموافقة . حليلته : زوجته . الظعينة : المرأة المسافرة في الهودج ، يقصد امرأته ايضاً . من طينته : من مستواه الاجتماعي . ابنة عمي لحا : ابنة عمي اخي ابي مباشرة . الارومة : الاصل .

(٩) اصابني بالصداع : اوجع رأسي (؟) (١٠) يتغاير : يغار بعضهم من بعض .

(١١) السطة : الوسط ، الجوهرة الكبيرة (؟) . القلادة : العقد — يقصد في وسط المحلة .

الله ! ما أكبرَ هذا الغَلَط ! تقولُ : الكَثيرُ فقطْ ! وَتَنَفَّس الصُّعَداء [١٢]، وقال : سبحان مَنْ يَعْلَمُ الأشياء .

وانتهينا الى بابِ دارِه ، فقال : هذه داري . كم تُقَدِّرُ ، يا مولايَ ، أنفقت على هذه الطاقة [١٣] ؟ انفقت ، والله ، عليها فوق الطاقة ، ووراء الفاقة . كيف ترى صَنعتها وَشَكْلَها ؟ أرأيتَ ، بالله ، مثلَها ؟ أنظُرْ إلى دقائقِ الصَنعة فيها ، وَتأمَّلْ حُسنَ تَعريجِها ! فكأنما خُطَّ بالبُرْكار [١٤] ! وَانظُرْ الى حِذقِ النجار في صَنعة هذا البابِ ! أتَّخذه من كم ؟ قلْ : ومن أين ؟ أعْلَمْ . هو ساجٌ من قِطْعة واحدةٍ لا مأروضٌ ولا عَفِنٌ . إذا حُرِّكَ أنَّ ، وإذا نُقِرَ طَنَّ [١٥] . مَنِ اتخذه ، يا سَيِّدي ؟ أتَّخذه أبو إسحقَ بنُ مُحَمَّدٍ البَصريَ . وهو ، والله ، رجلٌ نظيف الأثواب ، بصيرٌ بصَنْعه الأبواب ، خفيفُ اليد في العمل . لله دَرُّ ذلك الرجل ! بحياتي لا استعنت الا به على مثله [١٦] ! وهذه الحلْقة ، تراها ؟ اشتريتها ، في سوق الطرائف من عِمْرانَ الطرائفيِّ بثلاثة دنانيرَ مُعِزِّيَّةٍ . وكم فيها ، يا سَيِّدي ، من الشَّبَهِ [١٧] ؟ فيها ستةُ أرطالٍ . وهي تدورُ بلَوْلَبٍ في الباب . بالله ، دوِّرها !

---

(١٢) تنفس الصعداء : تنهد . (١٣) الحنية أو القنطرة المعقودة فوق المدخل .

(١٤) البركار : اداة ترسم بها الدائرة (بيكار) .

(١٥) الساج : شجر كبير من شجر الهند . مأروض : اكلته الأرضة (بكسر الهمزة وفتح الراء) : منخور . عفن : متهرىء بالرطوبة . أن : أحدث صوتاً لثقله . نقر : ضرب باليد . طن : احدث صوتا متسقا (ينفر الاناء حتى يعرف امكسور هوأم سليم).

(١٦) الدر : الحليب . لله دره : ما احسنه ! لااستعنت الا به على مثله : لا تصنع باباً الاعنده . الحلقة : اداة معدنية تعلق في البـاب ليقرع الباب بها . سوق الطرائف : السوق التي تباع فيـها الاشياء النفيسة .

(١٧) معزية نسبه الى معز الدولة بن بويه ؛ ويظهر انها كانت دنانير راجحة . الشبه : النحاس الاصفر .

ثم أنقرها وأبصرها ! وبحياتي عليك ، لا اشتريتَ الحلقَ إلّا منه ! فليس يبيعُ إلّا الأعلاق [١٨] .

ثم قرعَ البابَ ، ودخلنا الدهليزَ ، وقال : عمّرك الله ، يادارُ ! تأمّلْ ، بالله ، معارجها ، وتبيّنْ دواخلها وخوارجها ! وسلني : كيف حصّلتها ؟ وكم من حيلةٍ احتلتها ، حتى عقدتها ؟ [١٩] كان لي جارٌ يُكنى أبا سُليمانَ يسكن هذه المحلةَ ، وله من المال ما لا يَسَعُه الخزنُ ، ومن الصامت ما لا يَحصِرُه الوزنُ . مات ، رحمه الله ، وخلّف خلفاً أتلفه بين الخمر والزمر ، ومزّقه بين النرد والقمر [٢٠] . وأشفقتُ ان يسوقه قائدُ الاضطرار ، الى بيعِ الدار ، فيبيعُها في أثناءِ الضجر [٢١] ، ويجعلها عِرضةَ للخطر . ثم أراها ، وقد فاتني شِراها فأنقطعُ عليها حسراتٍ ، الى يوم الممات . فعمدت إلى أثواب لا تَنِضُّ تجارتُها ، فحمّلتُها إليه ، وعرّضتُها عليه ، وساومته على أنْ يشتريَها نسيئةً ؛ والمدبرُ يحسبُ النسيئةَ عطيّةً ، والمتخلّفُ يعتدّها هديّةً [٢٢] . وسألته وثيقة بأصل المال ، ففعل وعقدها لي . ثم تغافلتُ عن

---

(١٨) الرطل (بالفتح والكسر) اربعمائة وثمانون درهما (راجع القاموس المحيط ٣ : ٣٨٥) = نحو ١٥٣٦ غراماً . اللولب مسمار مخروط خرطاً حلزونيا (برغي) . الاعلاق جمع علق (بالكسر) الشيء النفيس .

(١٩) الدهليز : ممر مفضي الى الدار . المعارج جمع معرج : المرقى ، المرقاة ، السلم . عقد البيت : ملكه .

(٢٠) الصامت : المال من الذهب والفضة . الخلف : الذرية الأولاد . الزمر : سماع الغناء . النرد: لعبة الطاولة . القمر : الخسارة في القمار .

(٢١) اشفق ، خاف ، خشي . الضجر : الضيق واليأس من الفرج

(٢٢) لا تنض تجارتها : (الملوح) لا تروج تجارتها ، كاسدة . نسية : دينا . المدبر ، المفتقر ، الشقي ، يظن ان النسية منحة . والمتخلف (المتأخر تجارياً) يظنها هدية . وعندي ، المدبر (بضم الميم وفتح الدال وكسر الباء المشددة) : المفكر بعواقب الامور ، الداهية ، إنه يعتبران ما اعطاه دينا كأنه منحة او صدقة لا يهمه ايرجع ام لا . والمتخلف يظن كأنه هدية لانه لن يدفع ثمنه نقداً .

اقتضائه ، حتى كادت حاشيةُ حاله تَرِقُّ ، فأتيتُه فاقتضيتُه ، واستمهلني فأنظرته[٢٤] ، والتمسَ غيرَها من الثياب فأحضرتُه . وسألته أن يجعلَ داره رهينةً لديّ ، ففعل . ثم درّجتُه بالمعاملات الى بيعها ، حتى حصلتْ لي بجدِّ صاعد ، وبَخْتِ مُساعد ، وقوّة ساعدٍ ، وربَّ ساعٍ لقاعد ! [٢٥] وأنا بحمدِ الله مجدود ، في مثل هذه الأحوال محمود . وحسبُك [٢٦] ، يا مولايَ ، أني كنت منذُ ليالٍ نائماً في البيت ، مع من فيه ، إذ قُرِعَ علينا البابُ . فقلتُ : من الطارق المُنتاب ؟ فإذا امرأةٌ معها عِقد لآلٍ ، في جلدةِ ماء ورِقة آلٍ ، تعرضه للبيع . فأخذته منها إخذةَ خَلِس ، واشتريته بثمن بَخْس ، وسيكونُ له نفع ظاهرٌ وربحٌ وافرٌ ، بعون الله ودولتك [٢٦] . وإنما حدثتُك بهذا الحديثِ ، لِتَعْلَمَ سعادةَ جَدِّي في التجارة ؛ والسعادة تُنْبِطُ [٢٧] الماءَ من الحجارة . اللهُ أكبرُ ! لا يُنبئُكَ أصدقُ من نفسك ، ولا أقربُ من أنفسِك ! اشتريتُ هذا الحصيرَ في المُناداة ، وقد خرج من دور آلِ الفُرات ، وقتَ المصادرات ، وزمنِ الغارات [٢٨] . وكنت اطلب مثله منذ الزمن

---

(٢٣) وثيقة بأصل المال : سند بالدين . عقدها لي : تعهد لي فيها بالوفاء . لاقتضاء : المطالبة بالدين . رقت حاله : افتقر . أنظرته : امهلته ، اجلت الدين .

(٢٤) درجته بالمعاملات : جررته الى البيع شيئاً فشيئاً . الجد والبخت : الحظ : ساعد : من اليد الى المرفق ؛ بقوة ساعد : بجهد ونشاط ؛ رب ساع لقاعد مثل (فرائد اللآلي ١ : ٢٤٦) : قد يكون انسان في بيته بينما هنالك آخر يسعى له في خير .

(٢٥) مجدود : محظوظ . حسبك : يكفيك

(٢٦) المنتاب (في القاموس) : الذي يأتي مرة بعد مرة . (وهي في رأيي هنا) : المفاجيء . لآل : جمع لؤلؤ جمع لؤلؤة . جلدة ماء : صاف كأنه في غشاء من ماء . الآل : السراب ، كناية عن الرقة والصفاء ايضاً . بدولتك : برعايتك .

(٢٧) يجعلها تنبع .

(٢٨) الحصير : السجادة . المناداة : البيع بالمزاد العلني . آل الفرات : اسرة وليت الوزارة للعباسيين ، نكبوا وصودرت أموالهم في ايام الخليفة المقتدر (ت ٣٢٠ هـ) الغارات : النهب .

الأطول فـلا أجد ؛ والدهر حبلى ليس يُدرى ما يَلِد . ثم اتفق أني حضرت باب الطاق [٢٩] ، وهذا يُعرض في الأسواق ، فوزنت فيه كذا وكذا ديناراً . تأمل ، بالله ، دِقّته ولِينَه وصَنعته ولَونه ! فهو عظيمُ القَدْرِ ؛ لا يَقَعُ مثلُه الا في النَدْر ! [٣٠] وان كنت سمعت بأبي عِمران الحَصيريّ ، فهو عمله ؛ وله ابن يَخلُفه الآن في حانوته ، لا يوجد أعلاق الحُصُر إلّا عنده . فبحياتي ، لا اشتريت الحُصُرَ إلا من دُكّانه ! فالمؤمن ناصح لِإخوانه ، لا سِيَّما من تَحَرَّمَ بِخوانه [٣١] .

ونعود الى حديث المَضيرة ، فقد حانَ وقتُ الظهيرة . يا غلامُ ، الطَسْتَ والماء . فقلت : اللهُ أكبرُ ! ربما قَرُبَ الفَرَجُ ، وسَهُلَ المخرج ! وَتَقَدَّمَ الغلام ، فقال : ترى هذا الغلام ؟ انه رُومِيّ الأصل ، عِراقي النَشء . تَقَدَّمْ ، يا غلامُ ، وَاحسُرْ عن رأسك ، وَشَمِّرْ عن ساقك ، وَانْضُ عن ذِراعك ، وَافْتَرّ عن أسنانك ، وَأَقبِلْ ، وَأَدبِرْ . ففعل الغلام ذلك . وقال التاجر : بالله ، من اشتراه [٣٢] ؟ اشتراه ، والله ، أبو العباس ، من النخّاس ضعِ الطَسْتَ ، وهاتِ الإبريقَ . فوضعه الغلام ؛ وأخذه التاجر وقلّبه وأدار فيه النَظَرَ ، ثم نقره ، فقال : انظُرْ إلى هذا الشَبَهِ ، كأنه جذوة اللَهَب ، او قطعةٌ من الذهب ! شَبَهُ الشام ، وَصَنعةُ العِراق ! ليس من خُلقان الأعلاقَ [٣٣] ! قد عَرَفَ دُورَ الملوك ودارَها ! تأمل حسنه ! وَسَلني متى اشتريتُه ؟ اشتريتُه ، والله ، عامَ المجاعة ، وَادَّخرته لهذه الساعة . يا غلامُ ، الابريق [٣٤] ؛ فقدمه . وأخذه التاجرُ فقلّبه ؛ ثم قال : وأنبوبُهُ منه ! لا يَصْلُحُ

---

(٢٩) سوق ببغداد (٣٠) نادراً ، قليلا جداً . (٣١) أكل عنده ...

(٣٢) النشأة ، المربى . حسر : كشف . نضا عن ذراعه : نزع ثوبه عن ذراعه . افتر عن اسنانه : ضحك . الضمير في اشتراه تعود على الغلام .

(٣٣) هو علق (بكسر العين) نفيس وليس بخلق (بفتح اللام) قديم بل هو جديد أيضاً.

(٣٤) مفعول به لفعل محذوف تقديره « هات » .

هذا الابريق إلا لهذا الطَّسْت ؛ ولا يَصْلُح هذا الطَّسْت إلا مع هذا الدست [٣٥] ولا يَحْسُنُ هذا الدست إلا في هذا البيت ؛ ولا يَجْمُلُ هذا البيت إلا مَعَ هذا الضيف . أرسلِ الماءَ ، يا غلامُ ، فقد حانَ وقت الطعام . بالله ، ترى هذا الماء ما أصفاه ! أزرقُ كعين السِّنَّوْر ؛ وصافٍ كقضيب البِلَّوْر ! أستقيَ من الفُراتُ ، وأستعمل بعد البيات ؛ فجاء كلسانِ الشمعة ، في صفاء الدمعة . وليس الشأن في السَّقَّاء ، الشأن في الإناء ! [٣٦] لا يَدُلُّك على نظافة أسبابه أصدقُ من نظافة شرابه .

وهذا المِنديل ؟ سَلْني عن قِصَّته ! فهو نَسْج جُرجان ، وعمل أَرَّجان . وقع إليَّ فاشتريته ؛ فاتخذت امرأتي بعضه سَراويلا [٣٧] ، واتخذتْ بعضه مِنديلًا . دَخَل في سَراويلها عشرون ذِراعاً ، وانتزعتُ من يدها هذا القَدْرَ انتزاعاً ؛ واسلمته الى المُطَرِّز حتى صَنعه كما تراه وطرزه . ثم رَدَدْته من السوق وخزنته في الصُّندوق ، وادَّخرته للظراف من الأَضياف ؛ لم تُذِلَّه عَرَبُ العامَّةِ بأيديها ، ولا النساء بِمآقيها . فلكل عِلْق يوم ، ولكل آلة قوم ! يا غلام ، الخِوانَ فقد طال الزمان ؛ والقِصاعَ فقد طال المَصاع [٣٨] والطعامَ فقد كثر الكلام .

فأتى الغلامُ بالخِوان ؛ وقلَّبه التاجر على المكان ، ونقره بالبنان ، وعجمه بالأَسنان [٣٩] ، وقال : عَمَّرَ اللهُ بغدادَ ! فما أجودَ متاعها ، وأظرفَ صُنَّاعها !

---

(٣٥) البيت ؛ وفي الأصل : المجلس الفخم ، المنصب . يقال دست الوزارة .

(٣٦) السنور : الهر . كثيرون من أهل بغداد كانوا يفضلون الشرب من ماء الفرات لأنه أعذب من ماء دجلة مع ان بغداد مبنية على نهر دجلة مباشرة . البيات : ترك الماء في الآنية مدة الليل حتى يترسب ما فيه من عكر . السقاء : الذي ينقل الماء .

(٣٧) المنديل : المنشفة . جرجان وأرجان مقاطعتان في فارس . اشارة الى جودة نسجه وجنسه . والسراويل مفرد كسروال وشروال : ثوب للقسم الادني من البدن .

(٣٨) الظراف : جمع ظريف . عرب العامة : البدو . القصاع جمع قصعة : وعاء يسكب فيه الطعام . المصاع : (الجدال ، الكلام) .

(٣٩) على المكان : حالا . البنان جمع بنانة : رأس الاصبع . عجمه : عضه ليعرف قساوته .

تأمل ، بالله ، هذا الخوان ! وانظر إلى عرض متنه [٤١] ، وخفة وزنه ، وصلابة عوده ، وحسن شكله ! فقلتُ : هذا الشكل ؛ فمتى الأكل؟ فقال : الآن . عجل يا غلام ، الطعام . لكنَّ الخوانَ قوائمه منه .

قال ابو الفتح : فجاشت نفسي ، وقلتُ : قد بقيَ الخبزُ وآلاته ، والخبزُ وصفاته ؛ والحنطةُ من أين اشتريتَ أصلًا ، وكيف اكترى لها حملًا ، وفي أيِّ رحىً طحنَ ، وأجانةٍ عجنَ ، وأيِّ تنورٍ سجر ، [٤٢] وخبازٍ استأجرَ ؛ وبقيَ الحطبُ من أين احتطبَ ، ومتى جلبَ ؛ وكيف صفف ، حتى جفف ، وحبس حتى يبس . وبقيَ الخباز ووصفه ، والتلميذ ونعته والدقيق ومدحه ؛ والخمير وشرحه ؛ والملح وملاحته ؛ وبقيت السكرجات [٤٣] من اتخذها ، وكيف انتقدها ، ومن عملها . والخل ؛ كيف انتقيَ عنبه ، أو اشتريَ رطبه ، وكيف صهرجتْ معصرته ، واستخلص لبه ، وكيف قيرَ حبه ، وكم يساوي دِنه ، [٤٤] وبقيَ البقلُ ، كيف احتيلَ له حتى قطف ، وفي أيِّ مبقلة رصف ، وكيف تؤتوِّ حتى نظف . [٤٥]

---

(٤١) متنه : ظهره ، كناية عن ان ظهره عريض ومع ذلك فهو من قطعة واحدة .

(٤٢) الرحي : الطاحون . أجانة : وعاء كبير يعجن فيه . التنور : حفرة اسطوانية الشكل يخبز العجين فيها او على اطرافها . سجر التنور : أشعل فيه النار .

(٤٣) التلميذ هنا صبي الفران . ولا يزال معلم الفرن يدعى في بغداد الى الآن الاستاذ . السكرجات : الصحاف والاطباق التي يسكب فيها الطعام .

(٤٤) الرطب : التمر . صهرج الحفرة : طلى اسفلها وجدرانها بالطين والكلس الخ . المعصرة في الاصل بكسر الميم . والصواب فتحها على انها اسم مكان لا اسم آلة ، فان الذي صهرج مكان العصر لا آلة العصر . الحب : الجرة الضخمة لها عروتان . قير الحب : طلي خارجه بالقار (الزفت) الدن : وعاء طويل له عسعس (بضم العينين) اي ان اسفله مخروطي الشكل لا يثبت على الأرض ولذلك يجعلون له أداة من خشب يضعونه عليها .

(٤٥) البقل : النبت ، الخضرة كاللوبياء والسلق الخ . المبقلة : المكان المعد لخزن انواع البقل . رصف : وضع بعضه الى جانب بعض ، او فوق بعض .

وبَقِيَتِ المَضِيرةُ كيف أشتَرِي لَحمَها ، ووَفِيَ شَحمُها ، ونُصِبت قِدرُها ، وأُجِجَتْ نارُها ، ودُقَّتْ أبزارُها حتى أُجِيدَ طَبخُها وعُقِدَ مَرَقُها . وهذا خَطبٌ يَطِمُّ ؛ وأمرٌ لا يَتِمُّ ! (٤٦)

فقمت . فقال : أينَ تريدُ ؟ فقلت : حاجةٌ أقضيها . فقال : يا مولايَ ، تريد كَنِيفاً يُزرِي بربيعيِّ الأمير ، وخريفيِّ الوزير ؟ (٤٧) قد جُصِّصَ (٤٨) أعلاه ، وصُهرِجَ أسفلُه ، وسُطِّحَ سَقفُه ، وفُرِشَتْ بالمرمر أرضُه ؟ يَزِلُّ عن حائطه الذَّرُّ فلا يَعلَقُ ؛ ويمشي على أرضه الذُّباب فيَزلَقُ ؟ عليه بابٌ غِيرانُهُ من خليطَيْ ساجٍ وعاجٍ ، مُزدَوَجَيْن أحسنَ ازدواجٍ (٤٩) ؛ يَتَمَنَّى الضيفُ أنَّ يأكلَ فيه ! فقلت : كُلْ أنتَ من هذا الجِراب ، لم يكنِ الكَنيفُ في الحساب !

وخرجتُ نحوَ الباب ، وأسرعتُ في الذَّهاب ، وجعلت أعدو (٥٠) ، وهو يَتْبَعُني ، ويَصيحُ : يا أبا الفتح ، المَضِيرةَ ! وظن الصِبيانُ أن المضيرة لَقَبٌ لي ، فصاحوا صِياحَه ! فرَمَيْتُ أحدَهم بحجر ، من فَرْطِ الضَجَر . فلَقِيَ رجلٌ الحجرَ بعِمامته ، فغاص في هامته (٥١) فأخذتُ من النعالِ بما قَدَمَ وَحدُث ، ومِنَ الصَفع بما طاب

---

(٤٦) الابزار : انواع من البزر تضاف الى الطعام المطبوخ كالصنوبر والجوز والكزبرة ... الخ . المرق : ماء اللحم المغلي . عقد : خثر ، اصبح غليظا سميكا بفعل الغلي . خطب يطم : أمر يتعاظم ويتفاقم ، مصيبة كبيرة .

(٤٧) أزرى بربيعي الامير : يظهر ربيعي الامير بجانبه حقيراً صغيراً . الربيعي والخريفي : مسكن للربيع ومسكن للخريف .

(٤٨) جصص الجدار : طلاه بالجص (بالكلس) .

(٤٩) يزل عن حائطه الذر : يزلق عنه النمل الصغير (نملاسته) . غيرانه (كذا بالاصل) فسرها الشارح : الغيران جمع غار اصله الاخدود بين اللحيين من الفم استعمله في الفواصل بين الواح الباب ... من خليطي ساج وعاج : اي من خشب هندي (اسود) مطعم (بتشديد العين) بالعاج (الابيض) . مزدوجين احسن ازدواج : منسقين تنسيقا جميلا .

(٥٠) اركض . (٥١) رأسه .

وَخُبْتُ ، وَحُشِرْتُ الى الحبس ، فأقمت عامين في ذلك النَّحس [٥٢] . فنذرت ألّا آكُلَ مضيرةً ما عِشتُ ! فهل أنا في ذا ، يا آل هَمْدانَ ، ظالمٌ ؟ [٥٣] .

قال عيسى بنُ هِشامٍ : فقبلنا عُذْرَه ، وَنَذَرْنا نَذْرَه ، وَقُلنا : قديماً جَنَتِ المَضيرةُ على الأحرار ، وَقَدَّمتِ الأرذالَ على الأخيار .

---

(٥٢) اخذتني النعال ، اي ان الناس ضربوني بالنعال وصفعوني كثيراً ...

(٥٣) في الاصل : همذان (بفتح الميم والذال المعجمة) والصواب : همدان (بسكون الميم والدال المهملة) وهذا اقتباس من قول عمرو بن براق الهمداني :

وكنت اذا قوم غزوني غزوتهم فهل انا في ذا — يالهمدان — ظالم ؟

الحريري

موجز ترجمته

الحريري أو ابن الحريري [١] على الأصح – هو أبو محمد القاسم بن علي بن محمد بن عثمان الحريريّ البصري الحرامي . وهو عربي الأصل والمنشأ .

ولد الحريري في حدود سنة ٤٤٦ هـ (١٠٥٤م) في سكة (حي) بني حَرام [٢] من المَشان . والمَشان بلَيدة فوق البصرة كثيرة النخل .

ونشأ الحريري في البصرة وقرأ فيها الأدب على أبي القاسم الفضل بن محمد القصباني . وتنكشف مقاماته عن انه درس اللغة والنحو درساً واسعاً ودرس الفقه .

ويبدو أن الحريري كان من ذوي اليسار فقد كان يملك في البصرة ثمانية عَشَرَ الفَ (١٨٠٠٠) نخلة . وكذلك كان من ذوي المرتبة اذ كان « صاحب الخبر » في البصرة نفسها او في المشان – وصاحب الخبر هو الذي يحمل الى الخليفة اخبار الناس والجيش والادارة ، ولعله يشبه رئيس قلم الاستخبارات في هذه الأيام [٣] . ولقد بقي هذا المَنصِب في عَقِبه الى اواخر ايام الخليفة المقتفي (ت ٥٥٥هـ=١١١١م) .

وزار الحريري بغدادَ مراتٍ كثيرةً كانت احداها فيما نعلم سنة ٥٠٤ ؛ ولقي هنالك محنة عظيمة ، فقد انكروا عليه انه هو الذي صنع المقامات وزعموا أنها إنما وقعت له من بعض المغاربة فادَّعاها لنفسه ثم انهم تَحدَّوه بصنع مقامة واحدة مثلها ، فمكث في بيته اربعين يوماً فلم يتهيأ له تركيب كلمتين ولا الجمع بين لفظتين ...

(١) معجم الادباء لياقوت (مطبعة دار المأمون – مصر) ٦ : ٢٦١ .
(٢) بنو حرام قبيلة من العرب سكنوا هذه السكة فسميت باسمهم .
(٣) راجع تطور الأساليب النثرية ٤٠٣ .

فعاد الى البصرة منكسراً . ولكنه لما عاد الى البصرة صنع عشر مقامات جديدة وأصعد بها الى بغداد ، فحينئذ بان فضله . . . (١) .

ويغلب على الظن ان الحريري قد ذهب إلى الحج .

اما وفاته فكانت في البصرة في ٦ رجب ٥١٦ (١١ أيلول ١١٢٢) .

صفته وعناصر شخصيته

جاء في معجم الادباء (١٦ : ٢٦٢) ان الحريري « كان غاية في الذكاء والفطنة والفصاحة والبلاغة . . . وكان مع هذا الفضل قذراً في نفسه وصورته ولبسه وهيئته ، قصيراً دميماً بخيلاً مبتلى بنتف لحيته » . الا انه كان ايضاً صاحب ظرف ودعابة وفكاهة ، حسن التحديث عظيم الاحاطة بما للعرب من ادب وعلوم ، ولكنه لم يكن صاحب بديهة ، فانه لما طولب بصنع مقامة من مثل مقاماته مكث اربعين يوماً لم يستطع ان يخط فيها كلمة .

ولم يكن الحريري يشرب الخمر ولا يحب من يشربها .

تآليفه وخصائصها

للحريري تآليف مشهورة سنذكرها في ما يلي ونذكر معها خصائصها :

١ — درة الغواص في اوهام الخواص ، وفيها ينبه الحريري على كلمات يستعملها الكتاب في غير مواضعها ، الفها قبل عام ٥٠٤ هـ .

٢ — ملحة الاعراب ، وهو منظومة في النحو للمبتدئين الفها بعد عام ٥٠٤ هـ .

٣ — شرح ملحة الاعراب .

٤ — شعر غير شعره الموجود في المقامات . وهو يكثر فيه من التجنيس خاصة ومع كثرة تكلفه في ذلك فان له شعراً حسناً .

---

(١) معجم الادباء ١٦ : ٢٤٥ — ٢٦٦ .

٥ — مجموع رسائل . ورسائل الحريري اخوانية متعددة الاغراض ايضاً يتخللها شعر له ، وقد بالغ في التجنيس في الشعر والنثر وبالغ في الموازنة وسائر وجوه البلاغة حتى ان له رسالة التزم حرف السين في كل كلمة من كلماتها نثراً او شعراً ورسالة اخرى التزم فيها حرف الشين :

« ... شغفني بالشيخ شمس الشعراء — ريش معاشه وفشا رياشه ، واشرق شهابه ، واعشوشبت شعابه — يشاكل شغف المنتشي بالنشوة والمرتشي بالرشوة ...

فاشعاره مشهورة ومشاعره وعشرته مشكورة وعشائره
شفا بالاناشيد النشاوى وشفهم فشفيه مُستشف وشاكيه شاكره
سانشده شعراً تُشرق شمسه واشكره شكراً تشيع بشائره

٦ — المقامات ، وهي اشهر آثار الحريري .

بدأ الحريري تأليف مقاماته عام ٤٩٥هـ وقد قلد فيها بديع الزمان الا انه زاد عليه في التأنق اللفظي . ونظمها في فترات دامت بضع سنوات ، وجعلها خمسين كاملة [1] وتكلف فيها انواع البديع واغرق في الموازنة والمقابلة وفي التضمين والاقتباس ، وتعمّد فيها ابراز مقدرته اللغوية والأدبية والتاريخية والفقهية وما الى ذلك . الا انه قصر عن البديع في « ابتكار الموضوعات » وفي الجري على السجية . والحريري هو الذي خلق من المقامات فناً جديداً في الأدب العربي : وعند الرجوع الى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم في الأغلب تلامذة الحريري لا تلامذة بديع الزمان ، فقد اولع اكثرهم بالصنعة والزخرف . ولم يأنس منهم الى فطرته الا القليل [2] .

(أ) سبب وضع المقامات = قال ابن الحريري : كان ابي جالساً في مسجد بني حرام (احد احياء البصرة) فدخل شيخ ذو طمرين عليه اهبة السفر رث الحال

(١) راجع تطور الاساليب النثرية ٤٠٦
(٢) النثر الفني ١ : ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤

فصيح الكلام حسن العبارة ؛ فسألته الجماعة : «من اين؟» فقال : «من سَروج». فاستخبروه عن كنيته فقال : ابو زيد... ثم ادعى الفقر امام الجماعة وقال ان الروم اغاروا على بلده وسبوا ابنته وطردوه من بيته وانه الآن يجمع بعض المال لافتداء ابنته. فتحركت شفقة الحريري والجماعة فنفحوه بشيء من المال فشكرهم وتركهم.

وفي المساء قص الحريري القصة على اصحابه فقالوا له : خدعكم والله ، ليس الرجل فقيراً ولكنّ هذا دأبه . وشهد قوم بأنه ادعى هذه الدعوى وغيرها مرات كثيرة .

وقد بنى الحريري «المقامة الحرامية» على هذه القصة ؛ وهي المقامة الثامنة والأربعون عنده .

(ب) يسند الحريري رواية مقاماته الى «الحارث بن همام البصري» ويعني به نفسه ؛ أخذ ذلك من قول النبي صلى الله عليه وسلم : كلكم حارث وكلكم همام ؛ والحارث الكاسب (الساعي في الرزق) والهمام الكثير الاهتمام .

(ج) المكدي = واما بطل المقامات فهو ابو زيد السَروجي الذي مر ذكره ؛ وقد زعم قوم انه كان شيخاً شحاذاً بليغاً ومُكدياً فصيحاً . . . وزعم آخرون انه رجل اسمه المطهر بن سلام [1] وانه كان بصرياً نحوياً لغوياً ، صحب الحريري واشتغل عليه في البصرة . . . وتوفي عام ٥٤٠ هـ .

(د) الناحية المعنوية .

١ . مقامات الحريري اقل ابتكاراً من مقامات بديع الزمان واقل تنوعاً .
٢ . عارض الحريري مقامات بديع الزمان في العدد والموضوعات والأسماء .
٣ . مقامات بديع الزمان اقرب نكتة واحسن روحاً واجمل اختصاراً .

---

(١) معجم الادباء ١٦ : ٢٧٢

٤ . مقامات الحريري دائرة معارف صغيرة في النحو واللغه والتاريخ وغيرهـا لكثرة ما فيها من المادة .

(هـ) الناحية اللغوية واللفظية .

١ . مقامات الحريري اطول من مقامات الهمذاني .

٢ . مقامات الحريري كثيرة الغريب ؛ والحريري يتكلف ذلك ويتطلبـه بكل سبيل .

٣ . الحريري كثير التكلف والمبالغة في الصناعة اللفظية والمعنوية من سجع وترصيع وموازنة ، ومن كنايات واستعارات .

٤ . في مقامات الحريري فنون في البديع لم يطرقها بديع الزمان الهمذاني ، من الألغاز والأحاجي وما يقرأ طرداً وعكساً وما كلماته معجمة و مهملة او ما كان احد حروفه معجماً والذي يليه مهملا : مثال ذلك كله :

× أولاً : الأحاجي نحو قوله (المقامة الطيبية) :

ما تقول في من توضأ ولمس ظهر نعله ؛ قال انتقض وضوءه بفعله ! (النعل : الزوجة) . * قال : ايشتري المسلم سلب المسلمات ؟ قال : نعم ويورث عنه اذا مات ! (سلب المسلمات : قشر نوع من الشجر) * قال : ايحجز الحاكم على صاحب الثور ؟ قال : نعم ليأمن غائلة الجور ! (الثور الجنون) . . .

ومثل قوله في المقامة الشتوية :

رأيت يا قومُ اقوامـاً غِذاؤهمُ (بول العجوز) وما اعني ابنة العنب
و (قادرين) متى ما ساء صنعهمُ او قصروا فيه قالوا: الذنبُ للحطب
و (كاتبين) وما خطت انامِلهم حرفاً ولا قرأوا ما خُط في الكتب

وعصبة لم تر البيت العتيق وقد (حجوا) جثياً بلا شك على الركب
وجالساً (ماشياً) تهوي مطيته به وما في الذي اوردت من ريب
وطالما مر بي كلب وفي فمه (ثور) ولكنه ثور بلا ذنب (١)

ثانياً : ما يُقرأ طرداً وعكساً (المقامة المغربية) :

لُمْ أخا مَلَّ * كبِرجاءَ اجر ربك * لُذْ بكل مؤمَّل اذا لَمْ ومَلَكَ بَذَلَ *

اسْ ارملًا اذا عرا وارعَ اذا المرء اسا

ثالثاً : ما كان مهملًا ، بلا نقط (المقامة السمرقندية) :

الحمد لله الممدوح الأسماء ، المحمود الآلاء ، الواسع العطاء ... الك الامر ...
واهل السماح والكرم ... وهو الله لا إله إلا هو الواحد الأحد ، العادل الصمد ،
لا ولد له ولا والد ... ارسل محمداً للاسلام مهداً ، والملة موطداً .

او ما كان أحد احرفه مهملًا والآخر معجماً (المقامة الرقطاء) :

* اخلاق سيدنا تُحب ، وبعقوته يُلب ، وقربه تُحف ، ونأيه تلف ... :

سيد قُلَّب سَبوق مُبر فَطِنٌ مُغرب عزوفٌ عيوفْ
مُخلف متلف اغرّ فريد نابهٌ فاضل ذكي أنوف

وهنالك ما كانت منه كلمة معجمة والتي تليها مهملة (المقامة المراغية) :

الكرم ثبّت الله جيش سعودك يزين ، واللؤم غض الدهر جفن حسودك يشين ...
والعطاء يُنجي ، والمطال يشجي ، والدعاء يَقي ، والمدح يُنقي ، والحر يَجزي ...

---

(١) يول العجوز : اللبن . القادرون : الطابخون في القدر . الكاتبون : الذين يخيطون الجلد.
حجّ : غلب بالحجة. الماشي : الذي يملك الماشية . الثور : قطعة من جبن.

رابعاً : الرسالة التي تقرأ من اولها بوجه ومن آخرها بوجه آخر (المقامة القهقرية) :

الانسان ، صنيعة الاحسان ، ورب الجميل ، فعل الندب ، وشيمة الحر ، ذخيرة الحمد ، وكسب الشكر ، استثمار السعادة . . .

فانها تقرأ عكساً

. . . استثمار الشكر ، كسب الحمد ، ذخيرة الحر ، وشيمة الندب ، فعل الجميل ، ورب الاحسان ، صنيعة الانسان .

٥ . مقامات الحريري اكثر شعراً وأدل على مقدرة الحريري في صناعة الشعر . وكل ما في المقامات من شعر فانما هو للحريري إلا أربعة أبيات (المقامات ١٥)

٦ . الفن عند الحريري أتم ، وديباجة الحريري اخاذة حتى ان الانسان لينسى سياق القصة وهو غارق يتأمل في الكلمات المرصوفة واللغة المنمقة .

(و) الناحية الخلقية :

يصر الحريري على القول بانه أنشأ المقامات لغاية تهذيبية ، فهو يريد ان يدل الناس على مواطن الشر والخدعة فيجتنبوها ، ولكن الواقع ان المغزى الحقيقي في مقامات الحريري ضائع لسببين :

١ . اكثر الحريري من الاقذاع (البذاءة في الألفاظ والمعاني) وبنى بعض المقامات على اسس جنسية عاطفية ؛ ولقد غاب عنه ان الروائي يهذب الجمهور بان يعالج الادواء الاجتماعية الشائعه ، ولا يجوز له — اذا كان مهذب شعوب — ان يكشف عن نواح لا يعرفها إلا نفر قليل ثم ينشرها بين العامة .

٢ . لقد عالج الحريري هذه النواحي باسلوب فكاهي مشوق فظنها الناس من اسباب الظرف والتنادر فلم يرجعوا عنها بل اغرقوا فيها وفي مثلها .

المقامة الثالثة الدينارية

روى الحارثُ بنُ هَمَّامٍ قال : نَظَمَني وَأَخداناً لي نادٍ ، لم يَخِبْ فيه مُنادٍ ، ولا كبا قَدْحُ زِنادٍ ، وَلا ذَكَتْ نارُ عِنـادٍ [١] . فبينما نحن نتجاذبُ أطرافَ الأناشيد ، ونتوارد طُرَفَ الأَسانيد [٢] . إذ وقف بنا شخصٌ عليه سَمَلٌ ، وفي مِشيَتِهِ قَزَلٌ [٣] . فقال : يا أخايرَ الذخائر ، وبشائرَ العشائر ، غِبُوا صباحاً ، وأَنعموا أَصطباحاً [٤] ، وَانظروا الى مَنْ كان ذا نَدِيٍّ وَنَدًى ، وجِـدَةٍ وَجداً ، وَعَقارٍ وَقُرى ، وَمَقارٍ وَقِرًى [٥] . فما زال به قُطوبُ الخُطوبِ ، وحروبُ الكُروب ، وَشَرَرُ شرّ الحسود ، وَأَنتيابُ الثوبِ السود [٦] ، حتى صَفِرَتِ الراحة ، وَقُرِعَتِ

---

(١) الخدن (بالكسر) الحبيب ، الصديق . النادي : مكان الاجتماع نهاراً . يخب من خاب : لم يظفر . الزناد : حديدة تقدح بها النار من الصوانة . كبا : عثر . كبا الزناد : لم يقدح ناراً . ذكا : اشتعل ، اضطرم .

(٢) الاناشيد جمع انشودة : الشعر . طرف جمع طرفـة بالضم : الحديث المستملح . الاسانيد جمع إسناد : سلسلة الرواية في الاحاديث — حدث فلان عن فلان عن فلان .....

(٣) سمل : ثوب خلق (بفتح ففتح) متهرىء . القزل : العرج .

(٤) وعم (بفتح العين او كسرها) يعم (بكسر العين) الدار : قال لهـا : عمي : انعمي ؛ تمنى لها النعمة والخير . الاصطباح : شرب الخمر صباحاً .

(٥) ندي (بتشديد الياء) : مجلس مشهود ، مقصود . ندى (مقصورة) : كرم ، جود . الجدة : الغنى . الجدا : العطية ، الجود . العقار (بالفتح) : الاراضي غير المبنية ، او ذات النخيل . المقار جمع مقرة (بالكسر) الجفنة العظيمة ، وعاء يوضع فيه الطعام ، كناية عن الكرم . القرى (بالكسر) الضيافة .

(٦) قطوب : العبوس . الخطوب جمع خطب (بالفتح) : المصيبة . النوب جمع نوبة بمعنى نائبـة : مصيبة .

الساحة ، وغار المَنبع ، ونبا المربع ، وأقوى المجمع ، وَأَقضَّ المضجع [٧] ، واستحالت الحال ، وَأَعول العِيال ، وَخلَتِ المَرابطُ ، وَرَحِمَ الغابطُ ، وَأَودى الناطق والصامت ، ورثى لنا الحاسد والشامت [٨] . وَآل بنا الدهرُ المُوقِعُ ، وَالفَقرُ المُدقِعُ ، إلى أَنِ احتذَينا الوَجي ، وَاغتذَينا الشَّجا ، وَاستَبطَنَا الجَوى ، وَطَوَينا الأَحشاءَ على الطَّوى [٩] ، وَاكتحلنا السُّهادَ ، وَاستَوطَنَّا الوِهاد ، وَاستَوطَأنا القَتادَ ، وَتناسَينا الأَقتاد ، وَاستَطَبنا الحَينَ المُجتاح ، وَاستَبطَأنا اليَوم المُتاح [١٠] . فهل من حرّ آسٍ ، أَو سَمحٍ مُؤاسٍ ؟ فوالذي استخرجني من قَيلة ، لقد أَمسيت أَخا عَيلة ، لا أَملِك بيتَ لَيلة [١١] .

---

(٧) صفرت الراحة : خلت اليد . قرعت الساحة : نفر ما فيها من الغنم .... حنت ساحة بيتنا من الحيوان الاليف نبا المربع : — اجدب مكاننا فاصبحنا نبتعد عنه كثيراً حتى نجد منزلا مخصبا ننزله . اقوى المجمع : خلت بيوتنا من الناس (مات اهلها) . اقض المضجع : خشن مكان نومنا (كناية عن الهموم والقلاقل) .

(٨) استحالت الحال : تبدلت من حسن إلى سيء . رحم الغابط : اشفق علينا الذي كان يرى عظم النعمة عندنا . اودى : هلك . الناطق : الماشية . الصامت : المال الجامد ، الذهب والفضة .

(٩) الموقع : المهلك . المدقع : المذل (الدقعاء : الارض) . احتذينا الوجي : لبسنا جلد اخصنا (باطن القدم) ، اصبحنا حفاة . اغتذينا الشجا : اصبحنا نأكل الغصص (لا نأكل شيئاً) . الطوى : الجوع .

(١٠) السهاد : السهر . اكتحلنا السهاد : وضعناه في عيوننا (لم ننم لما نحن فيه من المصائب) . استوطنا الوهاد : سكنا في الاماكن المنخفضة لفقرنا ، تجنبا للضيوف اذا اوقدنا نارا . القتاد : الشوك . استوطأناه : وجدناه لينا فنمنا عليه (كناية عن الفقر وشظف العيش) . الحين : الموت . استطبنا الحين : رأينا الموت طيبا تمنيناه . المجتاح : المستأصل الذي يقتلع كل شيء . اليوم المتاح : يوم الموت . استبطأناه : وجدناه بطيئا عنا .

(١١) الآسي : الطبيب . آساه بماله : جعل له منه نصيبا (لا تقل : واساه) . قيلة : هي بنت الارقم الغسانية ام الاوس والخزرج سكان المدينة . استخرجني من قيلة : جعل نسبتي اليها : او اخرجني عن اهلي في المدينة . العيلة : الفقر . بيت ليلة : قوت ليلة .

فقال الحارثُ بنُ هَمّام : فَأَوَيْتُ لِمَفاقِرِه ، وَلَوَيْتُ الى اَستِنباط فِقَره (١٢) . فأبرزتُ ديناراً ، وقلت له اختباراً : إنْ مدحتَه نظماً فَهُوَ لك حَبّاً ! فأنشدَ في الحال ، مِنْ غير انتحال (١٣) :

أَكْرِمْ به أَصْفَرَ راقت صُفْرَتُهْ ... جَوّابَ آفاقٍ ترامت سَفْرَتُهْ (١٤) .
مـاثورةٌ سِمْعَتُـهُ وَشُهْرَتُهْ ؛ ... قد أُودِعَتْ سِرَّ الغنى أَسِرَّتُهْ (١٥) .
وقارنت نُجْحَ المساعي خَطْرَتُهْ ، ... وَحُبِّبَتْ إلى الانام غُرَّتُهْ (١٦) ،
كأنّما مِنَ القلوبِ نُقْرَتُهْ ؛ ... به يَصولُ مَنْ حوته صُرَّتُهْ .
وان تفانَتْ أو تَوانَتْ عِتْرَتُهُ ... يا حَبَّذا نُضارُه وَنُضْرَتُهْ (١٧) ،
وحبّذا مَغْناتُهُ وَنُصْرته ! ... كم آمِرٍ به اَستَتَبَّتْ إمْرَتُهْ (١٨) ،
وَمُتْرَفٍ لولاه دامت حَسْرته ؛ ... وجيشِ هَمٍ هزمته كَرَّتُهْ (١٩) ،
وَبَدْرِ تِمٍّ أنزلتـه بَدْرَتـه ، ... وَمُستشيطٍ تتلظّى جَمْرته (٢٠) ،
أَسِرَّ نَجواه فلانت شِرَّتُهْ (٢١) . ... وكم أَسيرٍ أسلمتـه أَسْرته

---

(١٢) اويت له : رق قلبي له . المفاقر جمع مفقرة : الفقر . لويت الى : ملت . الفقر (بكسر ففتح) جمع فقرة (بالكسر) الحكم والكلمات المستحسنة .

(١٣) انتحل شعر غيره : نسبه الى نفسه . (١٤) بعدت في كل جهة .

(١٥) الأسرة (بتشديد الراء) جمع لمفردات مختلفة : النقوش . ان نقش الدينار يدل على مقدار ما يمثل من المال (قيمته) .

(١٦) الخطرة : المرة من الذهاب : اذا بذلت الدينار في امر حصلت عليه

(١٧) توانت : ابطأت (عن نصرته) . عترته ، اسرته ، قبيلته . النضار : الذهب الخالص النضرة : البهجة والحسن .

(١٨) المغناة : الكفاية ، ما يغني عن اشياء كثيرة . استتبت إمرته : دام حكمه واستقر .

(١٩) ان الهجوم بالدينار على الهموم يفرقها ويذهب بها .

(٢٠) بدرتم : البدر ليلة تمامه (كناية عن المرأة الجميلة) . البدرة : عشرة آلاف دينار — بالمال تحصل على اجمل النساء . المستشيط : الغضبان .

(٢١) اسر نجواه : حصل عليه سراً . لانت شرته : هدأت حدته وغضبه — اذا غضب إنسان منك غضبا شديداً فدسست في يده شيئاً من المال سكت عنك غضبه .

أنقذه حتى صفت مسرته ... وحق مولى أبدعته فطرته [٢٢]

لولا التقى لقلت جاءت قدرته !

ثم بسط يده ، بعد ما أنشده ، وقال : أنجز حرٌّ ما وعد ، وسح خال إذا رعد [٢٣] . فنبذت الدينار إليه ، وقلت : خذه غير مأسوف عليه . فوضعه في فيه ، وقال : بارك الله فيه . ثم شمر للانثناء ، بعد توفية الثناء . فنشأت لي من فكاهته نشوة غرام ، سهلت علي ائتناف اغترام [٢٤] . فجردت ديناراً آخر ، وقلت له : هل لك في أن تذمه ثم تضمه . فأنشد مرتجلا ، وشدا عجلا :

تبا له من خادع مماذق [٢٥] ... أصفر ذي وجهين كالمنافق .

يبدو بوصفين لعين الرامق : ... زينة معشوق ولون عاشق [٢٦] .

وحبه عند ذوي الحقائق ... يدعو الى ارتكاب سخط الخالق [٢٧]

لولاه لم تقطع يمين سارق ، ... ولا بدت مظلمة من فاسق [٢٨]

ولا اشمأز باخل من طارق ، ... ولا شكا المطول مطل العائق [٢٩] .

---

(٢٢) فطرته : خلقه ، ابداعه .

(٢٣) انجز حرما وعد مثل (فرائد اللآل ٢٩٧) : وجب على الحر ان يفي بما وعد . الخال : السحاب . سح : قطر ، هطل .

(٢٤) ائتناف : استئناف ، العمل من جديد . اغترام : خسارة .

(٢٥) تبا : هلاكا . مماذق : غير مخلص ، يمزج صداقته بالرياء .

(٢٦) زينة معشوق : جميل ، براق . لون عاشق : اصفر (الاصفر لون المحول) .

(٢٧) ذوو الحقائق : اصحاب المعارف الصحيحة . — والناس يرتكبون ذنوبا كثيراً في سبيل الحصول على المال .

(٢٨) المظلمة : الاعتداء ، سلب الحقوق . الفاسق : مرتكب الآثام .

(٢٩) الباخل : البخيل . الطارق : الضيف الآتي ليلا . المطل : تأخير الدين . العائق : المتمنع عن أداء الدين .

ولا أستعيذ من حسودٍ راشقٍ (٣٠) . وَشَرُّ ما فيه من الخلائقِ
أنْ ليس يُغني عنك في المضايقِ إلا إذا فَرَّ فِرارَ الآبقِ .
واهاً لمن يَقْذِفُهُ من حالقٍ ، ومن إذا ناجاه نَجْوى الوامقِ (٣١)
قال له قولَ المُحِقِّ الصادقِ : لا رأيَ في وصلِكَ لي ففارقِ .

فقلت له : ما أغزرَ وَبْلَك ، فقال : والشَّرْطُ أَمْلَك (٣٢) . فنفحته بالدينار الثاني ، وقلت له عَوِّذْهما بالمثاني (٣٣) . فالقاه في فمِهِ ، وَقَرَنَهُ بِتَوْأَمِه . وَانْكفأ يَحْمَدُ مَغْداه ، وَيَمْدَحُ النادِيَ وَنداه (٣٤) .

قال الحارثُ بنُ هَمَّام : فناجاني قلبي بانه ابو زيد ، وان تَعَرُّجَهُ لَكَيْد (٣٥) . فأَسْتَعَدْتُهُ وقلت له : قد عُرِفتَ بِوَشْيِك (٣٦) ، فَاسْتَقِمْ في مَشْيِك . فقال : إن

---

(٣٠) الراشق : الذي يرمي النبال . و (هنا) يرمي الناس بالنظر الشزر بغضاً وحسداً . المال لا ينفع صاحبه ولا ينقذه من المواقف الحرجة الا اذا أبق (بكسر الباء : هرب أي اذا انفقه صاحبه .

(٣١) الحالق : المكان العالي . الوامق : المحب الصحيح .

(٣٢) ما أغزر وبلك : ما اكثر مطرك ، ما أبرعك في الكلام وأقدرك عليه !
الشرط أملك عليك أم لك مثل (فوائد اللآلي ١ : ٣١٤) : يجب ان تتقيد بالشرط سواء أكان لك على خصمك أم كان لخصمك عليك .

(٣٣) المثاني : السور الطوال من القرآن الكريم (القاموس المحيط ١ : ٣٠٩) وجاء في القرآن الكريم (١٥ : ٨٧ سورة الحجر) : ولقد آتيناك سبعاً من المثاني . عوذها بالمثاني : القرآن العظيم . اقرأ عليهما شيئاً من القرآن الكريم ليحفظهما الله لك .

(٣٤) قرنه بتوأمه : جمعه مع صاحبه أو مثيله . انكفأ : انقلب ، رجع . يحمد مغداه : يسر بمجيئه (الباكر) .

(٣٥) التعارج : التظاهر بالعرج . الكيد : الحيلة المبنية على الخبث .

(٣٦) الوشي : الزخرف . عرفت بوشيك : نمت مقدرتك اللغوية والأدبية عليك .

كنتَ ابنَ هَمّام ، فحُيّيتَ بإكرام ، وَحُيِيتَ بَيْنَ كِرام . فقلت : أنا الحارثُ ، فكيف حالُك والحوادث ؟ فقال : أتقلّبُ في الحالَيْنِ : بُؤسٍ ورَخاء ، وأنقلب معَ الريحين : زَعْزَعٍ ورُخاء[٣٧] . فقلت : كيف أدّعَيْتَ القَوْل ، وما مِثْلُك مَنْ هَزَل ؟ فاستَسَرَّ بِشْرُهُ الذي كان تَجَلّى[٣٨] ، ثم أنشد حِينَ وَلّى :

تعارجتُ لا رَغْبَةً في العَرَجْ ، ولكنْ لِأُقْرِعَ بابَ الفَرَجْ ،
وأُلْقِيَ حَبْلي على غارِبي وأَسْلُكُ مَسْلَكَ مَنْ قد مَرَجْ[٣٩] .
فإنْ لامني القومُ قلتُ اعْذِروا فليس على أعْرَجٍ من حَرَجْ[٤٠] .

---

(٣٧) الرخاء : سعة العيش . الزعزع : الريح الشديدة المتقلبة التي تهب من كل مكان . الرخاء (بالضم) : الريح اللينة الخفيفة .

(٣٨) استسر : خفي . تجلى : ظهر .

(٣٩) القى حبل الدابة على غاربها (عاتقها) : تركها ترعى على هواها . مرج : خلط ، مزج الجد بالهزل .

(٤٠) ليس على اعرج من حرج : الأعرج ذو عاهة فليس يكلف ان يكون جاداً في كل ما يعمل . في هذا البيت اقتباس للآية الكريمة من سورتي النور والفتح : ليس على الأعمى حرج ولا على الأعرج حرج ولا على المريض حرج (٢٤ : ٦١ ؛ ٤٨ : ١٧) .

المقامة التاسعة والثلاثون العمانية

حدّث الحارثُ بن همّام قال : لَهِجْتُ مُذ اخضرَّ إزاري ، وبَقَلَ عِذاري ، بان أجوبَ الهواري على ظهـور المَهاري [١] : أنجدُ غَوراً ، وأسلكُ تارةً غَوراً ؛ حتى فَلَيْتُ المعالمَ والمجاهلَ ، وبَلَوْتُ المنازل والمناهل ، وأدْمَيْتُ السَنابكَ والمَناسم ، وأنضَيْتُ السوابقَ والرَّواسم [٢] . فلما مَلِلْتُ الإصحار وقد سَنَحَ لي أَرَبٌ بصُحار مِلْتُ إلى اجتياز التَيّار ، واختيار الفُلْك السَيّار [٣] . فنقلتُ اليه أساودي ، واستصحبتُ زادي ومَزاودي . ثم ركِبْتُ فيه رُكوبَ حاذرٍ ناذرٍ ، عاذلٍ لنفسه عاذرٍ [٤] . فلمّا شَرَعْنا في القُلْعَة ، ورفعنا الشُرُعَ للسُرعة . سَمِعْنا من شاطئ المَرْسى ، حين دجا الليلُ وأغسى [٥] ، هاتفاً يقول : يا أهلَ ذا الفُلْكِ القويم ، المُزَجّى في البحر

---

(١) لهج : اشتد ولعه . الازار : موضع العفة . اخضر : اسود (بتشديد الدال) ، نبت ـ بلغ الصبي مبلغ الرجال . بقل : نبت . عذاري : خدي . جاب : قطع . المهارى : نياق من المهرة (بفتح ففتح) في جنوب بلاد العرب .

(٢) أنجد : قصد الاماكن العالية . فلى : قطع . المعالم : الارض الموطوءة ، المعروفة المسالك . المجاهل : الارض غير المعروفة المسالك . بلا يبلو : اختبر . المنزل : الاماكن الصالحة للتخييم . المناهل : مواضع الماء . السوابق : الخيل . الرواسم : الابل . انضى : أتعب . السنابك : حوافر الخيل . المناسم : أخفاف الابل .

(٣) الاصحار : السير في الصحراء . أرب : حاجة . صحار : بلد كبير في عمان (بضم العين وتخفيف الميم) في جنوبي شرقي بـلاد العرب . التيـار : موج البحر ، البحر . الفلك السيار : المركب الكثير السير .

(٤) الاساود : الامتعة . الزاد : المؤونة ، الطعام . المزاود جمع مزود : وعاء الزاد ؛ او مزادة : وعاء الماء . حاذر : خائف . ناذر : جاعل نذراً ان سلمه الله من اهوال البحر . عاذل : لائم . عاذر : ملتمس لنفسه عذراً في اضطراره الى السفر .

(٥) شرع : بدأ . القلعة : ابتداء المسير . الشرع جمع شراع : قلع السفينة . المرسى : الميناء . دجا وأغسى : اظلم ثم اشتدت ظلمته .

العظيم ، بتقدير العزيز العليم : « هَلْ أَدُلُّكُم عَلَى تِجارَةٍ تُنجِيكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ »؟[٦] فقلنا له : أقبسنا نارك ، أيُّها الدليلُ ، وأرشدنا كما يُرْشِدُ الخليلَ الخليلُ . فقال : أتستصحبون ابْنَ سبيلٍ ، زادُه في زَبيلٍ ، وظِلُّه غيرُ ثقيل ، وما ينبغي سوى مَقيل ؟ فأجمعنا على الجُنوح اليه ، وألّا نَبْخَلَ بالماعون عليه[٧]

فلما استوى على الفُلْك ، قال : أعوذ بمالِكِ المُلْك ، من مسالكِ الهُلْك[٨] . ثم قال : إنا رَوَينا في الأخبار ، المنقولةِ عن الأحبار ، أن اللهَ تعالى ما أخذ على الجُهّال أن يتعلّموا ، حتى أخذ على العلماء أن يُعلّموا[٩] . وإن معي لَعُوذَةً ، عن الأنبياء مأخوذةً ؛ وعندي لكم نصيحةٌ ، براهينُها صحيحةٌ . وما وَسِعَني الكِتمان ، ولا من خِيمي الحِرمانُ[١٠] . فتدبّروا القولَ وتفهّموا ، واعملوا بما تعلمون وعلّموا . ثم صاح صَيْحَةَ المُباهي ، وقال : أتدرون ما هي ؟ هِيَ وَاللهِ حِرزُ السَّفْر ، عند مَسيرهم في البَحر ؛ وَالْجُنَّةُ من الغم إذا جاش مَوجُ اليَمّ[١١] . وبها اسْتَعْصَمَ نوحٌ من الطوفان ، ونجا وَمَنْ معه مِنَ الحَيوان ، على ما صَدَعَتْ به آيُ القُرْآن . ثم قرأ بعضَ أساطيرَ تلاها ، وَزَخارف جَلّاها ، وقال : « ارْكَبوا فِيها بِاسْمِ اللهِ

---

(٦) المزجى : المسير (بتشديد الجيم ثم الياء) . العزيز العليم : القوي المطلع (بتشديد الطاء) ، الله . « هل ادلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم » آية من سورة الصف (٦١ : ١٠) .

(٧) اقبسنا نارك : اخبرنا عن نفسك . ابن سبيل : المنقطع في السفر . زبيل وزنبيل : قفة ، وعاء من خوص النخل . — يحمل امتعة قليلة يكفيها زنبيل توضع فيه . مقيل : مكان يكفي لجلوسه او نومه . على الجنوح : على ان نميل اليه . الماعون : السفينة .

(٨) استوى على الفلك : استقر في المركب . اعوذ بمالك الملك : ألتجيء الى الله .

(٩) الاحبار جمع حبر (بالفتح) : العالم . « ان الله ما أخذ ... الى قوله : يعلموا » حديث .

(١٠) عوذة : تميمة ، حرز ، حجاب . الخيم : العادة .

(١١) السفر (بفتح فسكون) : المسافرون معا . الجنة : الوقاية . جاش اضطرب . اليم : البحر .

مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا »[١٢] . ثم تَنَفَّسَ تَنَفُّسَ المُغرمين ، وَ عبادِ اللهِ المُكْرَمين ؛ وقال : أَمَا أنا فقد قمتُ فيكم مَقامَ المُبَلِّغين ، ونَصَحت لكم نُصْحَ المُبالغين ، وَسَلَكت بكم مَحَجَّةَ الراشدين ، فَاشْهَدِ اللَّهُمَّ وَأَنتَ خَيْرُ الشَّاهِدين[١٣] .

قال الحارثُ بن هَمَّام : فَأَعْجَبَنا بَيانُه البادي الطَّلاوَةِ ، وَعَجَّت له أصواتنا بالتِّلاوَة ؛ وَآنس قلبي من جَرْسِهِ ، مَعْرِفَةَ عينِ شمسِهِ[١٤] . فقلت له : بالذي سَخَّر البحرَ اللُّجِّيّ ، أَلَسْتَ السَّروجيّ ؟ فقال لي : بَلى ، وهل يخفى ابْنُ جَلا[١٥] . فأحمدتُ حينئذ السَّفَر ، وَسَفَرْتُ عن نفسي إذْ سَفَر[١٦] . ولم تَزَلْ نسيرُ والبحر رَهْوٌ ، والجوُّ صَحْوٌ ، والعيشُ صَفْوٌ والزمانُ هُوٌ ، وَأَنا أَجِدُ لِقِيانه ، وَجِدَ المُثْري بِعِقْيانه ، وأفرح بمناجاته ، فَرَحَ الغريقِ بمُنْجاته[١٧] ؛ إلى أن عَصَفَتِ الجَنوبُ ، وَعَسَفَتِ الجُنوبُ ، وَنَسِيَ السَّفْرُ ما كان ، وجاءهُمُ الموجُ من كل مكان[١٨] ؛

---

(١٢) استعصم : احتمى . صدع : نطق ، صرح . اساطير : حكايات وخرافات واباطيل Storia . وزخارف : تمويهات . جلاها : عرضها عرضا جميلا . « اركبوا فيها باسم الله مجراها ومرساها » آية من سورة هود (١١ : ٤١) .

(١٣) المغرم : المحب ، المثقل بالدين . قام مقام المبلغين : اخذ على نفسه ان ينقل اليهم خبر ما فيه خيرهم . نصح المبالغين : الذين يبالغون (يكثرون) النصح . المحجة : الطريق الواضح .

(١٤) البادي الطلاوة : الظاهر الحسن والجمال . عج : ارتفع : التلاوة : الدعاء . آنس : عرف ، أدرك . الجرس : الصوت الخفي . عين شمسه : حقيقته واصله .

(١٥) البحر اللجي : العظيم ، المضطرب . السروجي : ابو زيد ، مكدي الحريري . ابن جلا الرجل الواضح النسب المشهور .

(١٦) سفرت : كشفت عن سريرتي ، سررت . سفر : كشف عن حقيقة امره ، اظهر امره .

(١٧) رهو : هادىء . لقيانه : الاجتماع به ، لقاؤه . العقيان : الذهب . المناجاة : المحادثة سراً . المنجاة : النجاة .

(١٨) عصفت الجنوب : هبت الريح الجنوبية . عسفت الجنوب : اضطربت جنوبنا قلقاً وخوفاً . السفر : المسافرون معاً . « وجاءهم الموج من كل مكان » آية من سورة يونس (١٠ : ٢٢) .

فمِلْنا لهذا الحدثِ الثائر إلى إحدى الجزائر ، لنُريحَ ونستريح ، ريثما تُؤاتي الريح . فتمادى اعتياص المسير ، حتى نَفِدَ الزاد غيرَ اليسير ، فقال لي أبو زيد : إنّه لن يُحرَزَ جنى العود بالقعود ، فهل لك في استثارة السعود بالصعود[١٩] ؟ فقلت له : إني لأتبعُ لك من ظِلّك ، وأطوعُ من نَعْلك . فتهدّنا الى الجزيرة على ضعفٍ من المريرة ، انركضَ في امتراء الميرة . وكِلانا لا يَملِكُ فَتيلًا[٢٠] ، ولا يهتدي فيها سبيلًا . فأقبلنا نَجوسُ خِلالَها ، ونَتفيّأُ ظِلالَها ، حتى أفضَينا إلى قصرٍ مَشيدٍ ، له بابٌ من حديد ، ودونَه زُمرةٌ من عبيدٍ . فناسَمْناهم لِنَتّخِذَهم سُلّماً إلى الارتقاء ، وأرشيةً للاستقاء[٢١] . فألفَينا كُلًّا منهم كَثيباً حسيراً ، حتى خِلْناه كَسيراً أو أسيراً . فقلنا : أيّتُها الغلمة ، ما هذي الغمّة[٢٢] ؟ فلم يُجيبوا النداء ، ولا فاهوا ببيضاء ولا سوداء . فلما رأينا نارَهم نارَ الجاحب ، وخُبْرَهم كسَراب السَّباسِب ، قلنا : شاهت الوجوهُ ، وقَبُحَ الكَعُ ومَن يرجوه . فابتدر خادمٌ قد عَلَتْهُ كَبْرة ، وعَرَتْه عَبْرة[٢٣] ، وقال : يا قومُ لا تُوسِعونا سَبًّا ولا تُوجِعونا عَتْباً ،

---

(١٩) : تؤاتي : تأتي موافقة . تمادى : طال . الاعتياص : العسر ، الصعوبة . جني العود : الثمر ، كناية عن بلوغ الامل . استثارة : استخراج ، السعود : الحظوظ . الصعود : النزول على شاطىء الجزيرة .

(٢٠) نهدنا : نهضنا . المريرة : القوة . امتراء الميرة : طلب المؤونة والرزق . الفتيل : الخيط المفتول ؛ غشاء رقيق في شق بذرة التمر — لا يملك شيئاً .

(٢١) جاس خلال الدور : جال بينها . مشيد : مبني بالآجر والحجارة . ناسمناهم : شممنا نسيمهم ، حادثناهم لنستقصي اخبارهم . الرشاء : حبل يستقى به الماء من البئر .

(٢٢) الحسير : الحزين . الغلمة جمع غلام : العبد ، الخادم . الغمة : الغم والهم .

(٢٣) ولافاهوا ببيضاء ولا سوداء :... بكلمة طيبة ولا بكلمة رديئة ؛ لم يتكلموا قط . الجاحب : هوام تطير بالليل ويظهر منها نار (لأن في مؤخرة جسمها فوسفور) ولكن لا تحرق . الخبر (بضم الخاء) : ما انطوى عليه باطنهم . السباسب الصحارى . شاهت الوجوه : قبحت . الكع : اللئيم ، الاحمق . ابتدر : تقدم . كبرة : تقدم في السن . عرته عبرة : نفر الدمع في عينه .

فإنّا لفي حُزْنٍ شامل ، وَشُغل عن الحديث شاغل [٢٤] . فقال له ابو زيد : نَفِّسْ خِناقَ البَثّ ، وَانْفُثْ إنْ قَدَرْتَ على النَّفْث . فإنك ستجد مني عَرّافاً كافياً ، ووَصّافاً شافياً [٢٥] . فقال له : أعلَمْ أن ربَّ هذا القصرِ هو قُطْبُ هذه البُقْعَة ، وشاهُ هذه الرُّقْعَة [٢٦] إلّا أنه لم يَخْلُ من كمد ، لِخُلُوِّهِ من ولد . ولم يَزَلْ يَسْتَكْرِمُ المغارسَ ، وَيَتَخَيَّرُ من المغارسِ النفائسَ ، إلى أن بُشِّرَ بحَمْلِ عَقيلته ، وآذَنَتْ رَقْلَتُه بفَسيلته ، [٢٧] ، فَنُذِرَت له النُّذور ، وَأُحْصِيَتِ الأيامُ والشهور . ولما حان النِّتاج ، وصيغَ الطَّوْقُ والتاج ، عَسُرَ مَخاضُ الوضع ، حتى خِيفَ على الأصل والفرع [٢٨] . فما فينا من يَعْرِفُ قراراً ، ولا يَطْعَمُ النومَ إلّا غِراراً . ثم أجهَش بالبكاء وأعول ، وَرَدَّد الاسترجاع وطوّل [٢٩] . فقال له ابو زيد : اسكُنْ يا هذا واستبشر ، وَأبشِرْ بالفَرَج وَبَشِّرْ . فعندي عَزيمةُ الطَّلْقِ التي انْتَشَرَ سَمْعُها في الخَلْق . فتبادرتِ الغِلْمَة إلى مَوْلاهم ، مُتباشرين بانكشاف بَلْواهم فلم يكن لا كَلَا ولا حتى برز من هَلْمَمَ بنا اليه . فلما دخلنا عليه ، ومَثَلْنا بين يديه [٣٠] ،

---

(٢٤) شاغل : صارف عن الاهتمام بالآخرين .

(٢٥) نفس خناق البث : هون حزنك . وانفث : تكلم . العراف : الذي يعرف الامراض ويداويها .

(٢٦) القطب : العظيم الذي تدور حوله الامور . شاه : ملك . شاه هذه الرقعة : الملك في لعبة الشطرنج وهو اهم الحجارة في تلك اللعبة — اعظم سكان هذا الحي .

(٢٧) المغارس .... الخ : يتطلب كرام الفتيات زوجات له . الرقلة : النخلة الكبيرة (كناية عن الزوجة) . الفسيلة : الفرخ الذي ينبت بجانب النخلة (كناية عن ان زوجته حملت) .

(٢٨) حان النتاج : قربت الولادة . الطوق قلادة للعنق . التاج عصابة للرأس . المخاض : الطلق ، الولادة . الاصل والفرع : الام والطفل .

(٢٩) غراراً : قليلا ، شيئا بعد شيء . اجهش : بدأ البكاء . اعول : صوت بالبكاء . الاسترجاع : قولنا : انا لله وانا اليه راجعون .

(٣٠) حجاب يسهل الولادة . تبادر : اسرع . البلوى : المصيبة . هلمم : قال لنا : هلم ، دعانا . مثلنا : وقفنا .

قال لأبي زيد : ليهنك مناك ، إن صدق مقالك ، ولم يفل فالك [٣١] . فاستحضر قلماً مغربياً ، وزبداً بحرياً ، وزعفراناً قد ديف ، في ماء ورد نظيف . فإن رجع النفس ، حتى أحضر ما التمس [٣٢] . فسجد ابو زيد وعفر ، وسبح واستغفر ؛ وابعد الحاضرين ونفر . ثم أخذ القلم واسحنفر ، وكتب على الزبد بالمزعفر [٣٣] .

أيهذا الجنين ، إني نصيح لك ؛ والنصح من شروط الدين :
أنت مستعصم بكن كنين وقرار من السكون مكين [٣٤] .
ما ترى فيه ما يروعك من إلف مداج ولا عدو مبين .
فمتى ما برزت منه تحولت الى منزل الأذى والهون [٣٥] .
وتراءى لك الشقاء الذي تلقى فتبكي له بدمع هتون [٣٦] .
فاستدم عيشك الرغيد وحاذر ان تبيع المحقوق بالمظنون [٣٧] .
واحترس من مخادع لك يرقيك ليلقيك في العذاب المهين [٣٨] .
ولعمري لقد نصحت ولكن حكم نصيح مشبه بظنين [٣٩] .

---

(٣١) ليهنك : ليهنئك (وحذف الهمزة لهجة اهل الحجاز) ؛ منالك : ما ستناله من العطاء . — اي سيكون كثيراً . لم يفل فالك : لم يخب تقديرك واملك .

(٣٢) زبد بحري : نوع من السمن ؟ وفي شرح المقامات : حجر شديد البياض رخو رقيق (خفيف) يوجد على وجه البحر .... ذكر الحكماء انه اذا وضع على فخذ ماخض سهلت ولادتها . داف : مزج .

(٣٣) عفر : مرغ وجهه في التراب . اسحنفر : في شرح المقامات : اسرع .... ولعلها : انحنى فوق الورق هو يكتب .

(٣٤) استعصم : تمسك . الكن : المستقر

(٣٥) راعه : أخافه . إلف : صديق . مداج : مراء ، منافق . مبين : ظاهر . الهون : الذل .

(٣٦) هتون : كثير .

(٣٧) الرغيد : الكثير ، الواسع . المحقوق : الحاصل . المظنون : المشكوك فيه .

(٣٨) رقاه : قرأ له فصولاً من الاوراد الدينية ؛ اثر فيه .

(٣٩) المتهم : المظنون فيه .

ثم انه طمس المكتوب على غفلة ، وتفل عليه مِائَةَ تَفلة ، وشد الزَّبَدَ في خرقة حرير ، بعدَما ضَمَّخها بعبير (٤٠) . وأَمر بتعليقها على فَخِذ الماخِض ، وألَّا تَعلَقَ بها يَدُ حائض . فلم يَكُنْ الا كذَواقِ شارب ، او فُواق حالب ، حتى أنداق شخصُ (٤١) الولد لِخَصِيصَى الزبد ؛ بقُدرة الواحد الصَّمد . فامتلأ القصرُ حُبوراً ، واستطير عَميدُه وعبيده سُروراً (٤٢) . وأحاطت الجماعة بأبي زيد تثني عليه ، وتُقَبِّل يديه ، وتتبرَّك بمساس طِمْرَيه حتى خُيِّلَ إلي أنه القَرَنِيُّ أُوَيس ، أو الأَسَدِيُّ دُبَيس (٤٣) . ثم أنثال عليه من جوائز المُجازاة ووصائل الصِلات ، ما قَيَّض له الغِنى ، وبَيَّض وجه المُنى (٤٤) . ولم يزل يَنْتابُه الدَّخل منذ نُتِجَ السَّخْل إلى أن أعطى البحرُ الأمانَ وتَسَنَّى الإقامُ إلى عُمانَ . فاكتفى أبو زيد بالنِّحلة ، وتأهب للرحلة (٤٥) .

---

(٤٠) طمس الكتابة : شوهها . تفل : بصق . ضمخها : لطخها . عبير : طيب ، رائحة طيبة .

(٤١) الماخض : التي اخذها المخاض ، التي دخلت في الولادة . تعلق بها : تمسها . الحائض المرأة في ميعاد حيضها . اندلق : خرج بسهولة . ذواق شارب : ريثما يذوق الشارب الشراب . فواق حالب : مقدار ما بين الحلبتين — المقصود : زمنا قصيرا

(٤٢) خصيصي : خاصة ، فعل . الواحد الصمد : الله الواحد المقصود . استطير سروراً : خف بالسرور ، سر كثيراً .

(٤٣) المساس : المس . الطمر : الثوب البالي . خيل الي : ظننت . اويس القرني : زاهد كان بالكوفة ؛ من كبار التابعين (الذي رأوا اصحاب رسول الله) . دبيس الاسدي : الامير سيف الدولة بن يزيد الاسدي كان اميراً ببغداد ومعاصراً للحريري .

(٤٤) انثال : تتابع ، انصب . الوصائل جمع وصيلة : ما يوصل به الانسان . الصلات جمع صلة : العطية . قيض : هيأ ، سهل . المنى جمع أمنية : ما يصبو اليه الانسان — بلغه آماله .

(٤٥) ينتابه الدخل : يأتيه الرزق . السخل : الشاة الصغيرة . نتج السخل : ولد (بالبناء للمجهول) المولود . اعطى البحر الأمان : هدأ واصبح السفر فيه مأموناً . تسنى : سهل ، أمكن . عمان : بلد كبير في جنوبي شرقي بلاد العرب . النحلة : العطاء . تأهب : استعد .

فلم يسمح الوالي بحركته ، بعد تجربة بركته . بل أوعز بضمه الى خزانته (٤٦) ، وأن تطلق يده في خزانته .

قال الحارث بن همام : فلما رأيته قد مال ، الى حيث يكتسب المال أنحيت عليه بالتعنيف ، وهجنت له مفارقة المألف والأليف (٤٧) . فقال إليك عني واسمع مني :

لا تعجبن إلى وطن ... فيه تضام وتمتهن (٤٨) ؛
وارحل عن الدار التي ... تعلي الوهاد على القنن (٤٩) .
واهرب إلى كن يقي ... ولو انه حضنا حضن (٥٠) .
وأربأ بنفسك ان تقيـ ... ـم بحيث يغشاك الدرن (٥١) .
وجب (٥٢) البلاد ، فأينما ... أرضاك فاختره وطن ،
ودع التذكر للمعاهـ ... ـد والحنين إلى السكن (٥٣) .
واعلم بأن الحر في ... أوطانه يلقى الغبن (٥٤) .
كالدر في الأصداف ين ... ـزرى ويبخس في الثمن (٥٥) .

(٤٦) اوعز : أشار ، امر . الخزانة : جماعة الرجال الذين يخزنون لمصابه اذ هو يخزن لمصائبهم .

(٤٧) التعنيف : اللوم والتوبيخ . هجنت : قبحت . المألف : المسكن والموطن . الاليف : الصاحب .

(٤٨) صبا : اشتاق . امتهن : احتقر .

(٤٩) الوهدة : المكان المنخفض . القنة : رأس الجبل .

(٥٠) الكن : المكان الذي يحميك . يقي : يحفظ ، يحمي . الحضن : الجانب . حضن (بفتح ففتح) جبل في نجد .

(٥١) أربأ بنفسك : ارفعها ، نزهها . يغشاك الدرن : يطرأ عليك القذر (الذل) .

(٥٢) جاب يجوب : قطع .

(٥٣) المعاهد : الاماكن التي يسكنها الناس . الحنين : شدة الشوق . السكن : اهل الانسان .

(٥٤) الغبن : النسيان والاهمال .

(٥٥) يستزرى : يحتقر . بخس ثمنه : دفع فيه اقل من قيمته (أساء معاملته) .

ثم قال حَسْبُك ما أستمعت . وَحَبَّذا أنت لو أتبعتَ . فأوضحت له مَعاذيري ، وقلت له : كن عذيري ! فَعَذَر واعْتَذَر ، وزوّد حتى لم يَذَر (٥٦) . ثم شيّعني تشييعَ الأقارب ، إلى أن ركِبتُ في القارب . فوَدّعته وأنا أشكو الفِراقَ وأذُمّهُ ، وأودّ لو كان هَلَاكَ الجنينُ وأثمهُ .

(٥٦) المعاذير : الاعذار . العذير : العاذر . وذر يذر : ترك (زودني بكل شيء) .

أثر المقامات في الأدب

كان للمقامات أثر في الأدب العربي وفي عدد من الآداب الاخرى . لقد كان بعد الحريري نفر أنشأوا مقامات أمثال الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) وعمر بن الوردي (ت ٧٤٩ هـ) وجلال الدين السيوطي (ت ٩١١ هـ) والشيخ ناصيف اليازجي (ت ١٢٨٨هـ = ١٨٧١م) والشيخ ابراهيم الأحدب (ت ١٣٠٨هـ) وغيرهم كثيرون . وكذلك كتب محمد المويلحي (ت ١٣٢٣هـ) كتاباً سماه « حديث عيسى بن هشام » يخالف المقامات من حيث الموضوع ولكن يشبهها من حيث السياق والتركيب والاغراق في الصَّناعة . ويحسن ان نلاحظ أن « عيسى بن هشام » هو في الأصل بطل مقامات بديع الزمان الهمذاني .

« وعند الرجوع إلى آثار من تأثروا بفن المقامات نراهم في الأغلب من تلامذة الحريري لا تلامذة البديع (بديع الزمان الهمذاني) ، فقد أُولِعَ أكثرهم بالصَّنعة والزخرف ، ولم يأنس منهم إلى فطرته إلا القليل [٥٧] » .

على ان المقامات المتأخرة كلها تقليد بَحْتٌ ولم يحاول أحد أن يزيد فيها شيئاً جديداً .

ولقد ظهر أثر المقامات أيضاً - من حيث الاسلوب والاغراق في التصنيع - في مقدمات الكتب العربية إلى أوائل العصر الحاضر وفي بعض الخطب العامة في الأقل وخطب المساجد في الأكثر .

وانتقل فن المقامات إلى الأدب السامي الحي ، فان يهوذا بن سلمون بن هوفني

---

(٥٧) النثر الفني ٢٠٣

المعروف بالحريزي ، وهو شاعر عبري عاش في الاندلس في النصف الأول من القرن الثالث عشر ، بدأ حياته الأدبية بأن نقل مقامات الحريري من العربية إلى العبرية . ثم انه عمل مقامات قلد فيها الحريري وسماها « تحكيموني » أو « سِفر تحكيموني » (كتاب الحكيم ؟) وأدخل فيها كلاماً كثيراً من التوراة [1] .

وأنشأ اسحق نصيبين عبد يشوع (ت ١٣١٨ م) خمسين قصيدة قلد فيها الحريري في الصناعة اللفظية .

كذلك انتقل فن المقامات من الأدب العربي إلى الأدب الآري ، فان القاضي حميد الدين أبو بكر بن عمر بن محمود البلخي (٥٥٩ هـ ، ١١٦٤ م) أنشأ مقامات باللغة الفارسية حاكى فيها الحريري . ومن الذين عملوا مقامات باللغة الفارسية أيضاً الصحافي أديب الممالك (ت ١٣٣٦ هـ ، ١٩١٧ م) .

ولقد نقلت مقامات الحريري إلى بعض اللغات الاوروبية الحديثة .

---

(١) Jew. Enc. 1930 - 392 وراجع دائرة المعارف الاسلامية :مقامات

الفهرست

الصفحة

٣ الكلمة الثانية

٤ الكلمة الاولى

٥ التدوين والترسل الاول : الكتابة ـ دواوين الرسائل

٨ عبد الحميد الكاتب (ترجمته وخصائصه)

١١ المختار من رسائله

١٧ الترسل الفني

٢١ المقامات وخصائصها

٢٥ بديع الزمان (ترجمته وخصائصه)

٣٠ المختار من رسائله ومقاماته .

٥٢ الحريري (ترجمته وخصائصه)

٥٩ المختار من مقاماته

٧٤ اثر المقامات في الادب

نخبة من دراسات وكتب

الدكتور عمر فروخ

عضو المجمع العلمي العربي بدمشق
عضو جمعية البحوث الاسلامية في بومباي
استاذ الفلسفة الاسلامية والأدب العربي
في كلية المقاصد الاسلامية في بيروت

دراسات قصيرة		الثمن بالقرش اللبناني
١ — الحجاج بن يوسف	(الطبعة الثانية)	٤٠
٢ — عمر ابن ابي ربيعة	(الطبعة الثانية)	٧٥
٣ — عبد الله بن المقفع	(الطبعة الثانية)	٤٠
٤ — الوسائل والمقامات	(الطبعة الثانية)	١٠٠
٥ — ابن الرومي	(الطبعة الثانية)	٥٠٠
٦ — احمد شوقي	(الطبعة الثانية)	
٧ — ابن خلدون	(الطبعة الثانية)	
٨ — اثر الفلسفة الاسلامية في الفلسفة الاوروبية		٢٥
٩ — شعراء البلاط الاموي	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٠ — الفارابيان : الفارابي وابن سينا	(الطبعة الثانية)	١٠٠
١١ — اربعة ادباء معاصرين	(الطبعة الثانية)	
١٢ — خمسة شعراء جاهليين		١٥٠
١٣ — بشار بن برد	(الطبعة الثانية)	١٢٥
١٤ — نهج البلاغة		٥٠
١٥ — اخوان الصفا		٢٥٠
١٦ — ابن باجه		١٠٠

دراسات قصيرة	الثمن بالقرش اللبناني
١٧ — ابن طفيل	١٢٥
١٨ — التصوف في الاسلام	٢٠٠
١٩ — الفلسفة اليونانية في طريقها الى العرب	١٥٠

هذه الدراسات القصيرة من منشورات مكتبة منيمنه — شارع المعرض — بيروت

دراسات أخر

ابو نواس : دراسة ونقد	(الطبعة الثالثة)	١٥٠
ابو نواس : مختارات		٥٠
ابو تمام		١٠٠
حكيم المعرة	(الطبعة الثانية)	٢٠٠
عبقرية العرب في العلم والفلسفة		٣٠٠
الاسلام على مفترق الطرق	(الطبعة الثانية)	١٥٠
نحو التعاون العربي		١٠٠
دفاعاً عن العلم		(نفد)
دفاعاً عن الوطن		٥٠

600 — Das Bild des Frühislam in der arabischen Dichtung von der Higra bis zum Tode Umars, 1 - 23 d. H. (622 — 644 n. Ch.) Leipzig 1937.

يمكن الحصول على هذه الكتب كلها من :

These publications are obtainable from :
Messrs. LUZAC and Co. Ltd. ,
46 Great Russell St. ,
LONDON, W. C. I.